الفتح المبين فى أسرار التعبير القرآنى
فى سورة "يس"
من أول السورة حتى الآية الثانية والثلاثين

الأستاذ الدكتور
أحمد إبراهيم حسن محمد
الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالزقازيق

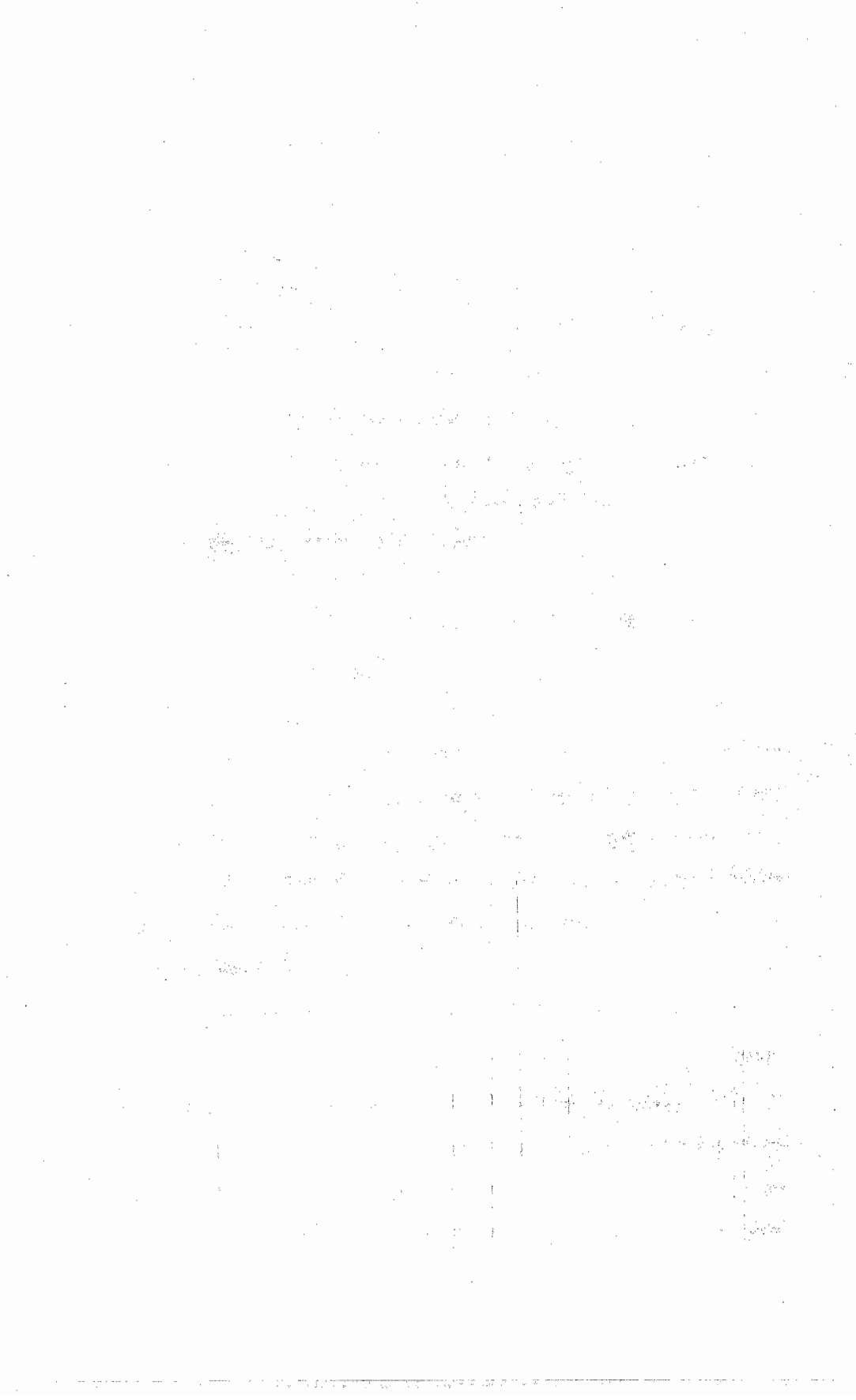

الفتح المبين فى أسرار التعبير القرآنى فى سورة "يس" من أول السورة حتى الآية الثانية والثلاثين

الأستاذ الدكتور

أحمد إبراهيم حسن محمد

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالزقازيق

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد، سيدنا محمد بن عبدالله، الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وأصحابه الذين ارتشفوا من رضا به، واشتفوا من حلابه، وعكفوا على آدابه، فكانت منهم وبهم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله .

وبعد

فإن أحق كتاب بالنظر فيه، وإجالة الفكر فى معانيه، هو [القرآن الحكيم] الذى لا تنقضى عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد .

والباحث يجد فى معايشته لآياته ــ درسا، وفهما، وتأملا، وتحليلا ــ لذة أسمى من كل لذة ، ويشعر بسعادة تفوق كل سعادة .

فهو من أجل ذلك يحرص على أن يكون دائما مع القرآن، وفى رحاب القرآن بغية التعرف على ما فيه من أسرار ودقائق ولطائف، وهو بذلك يصل إلى أسعد الغايات ، ويظفر بأعلى الدرجات .

وهذه دراسة بلاغية تحليلية متواضعة لسورة "يس"، وكان الدافع لدراسة هذه السورة أمرين:

الأول: أن هذه السورة قامت على تقرير أمهات أصول الدين. وبناء أسس العقيدة على أبلغ وجه وأتمه، فكانت جديرة بأن تسمى (قلب القرآن) لأن من تقاسيمها تتشعب شرايين القرآن كله، وإلى وتينها ينصب مجراها.

ويوضح الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ وجه إطلاق ذلك عليها بأن المدار على الإيمان، وصحته بالاعتراف والحشر والنشر، وهو مقرر فيها على أبلغ وجه[1].

الثاني: أني وجدت المسلمين في ماليزيا والدول الإسلامية المجاورة لها ـ وقت أن كنت معارا إلى الجامعة الإسلامية الحكومية بدح دار الأمان ماليزيا ـ يحرصون على قراءة هذه السورة في مناسباتهم، ويخصصون لها ليلة الجمعة من كل أسبوع، يجتمعون في المساجد، وفي البيوت، ويقومون بقراءة هذه السورة، وبعد الانتهاء من القراءة يتوجهون إلى الله بخالص الدعاء، فكان هذا العمل منهم دافعا لي إلى أن يزداد قربي من هذه السورة: أكثر من قراءتها وأمعن النظر في آياتها، وأحاول التعرف على ما فيها من أسرار، ودقائق، ولطائف، وبعد أن قمت ـ بتوفيق من الله ـ بهذه الدراسة، وعايشت آياتها، وجملها، ومفرداتها، عرفت الحكمة من حرصهم على قراءتها، وإيثارهم لها، وأيقنت أنها بحق ـ على حدتها ـ عجيبة من عجائب القرآن.

وسورة "يس" تدور حول موضوعات رئيسية ثلاثة:

١ - البعث والنشور.

٢ - الألوهية والوحدانية.

٣ - طبيعة الوحي وصدق الرسالة.

---

(١) ينظر: روح المعاني للآلوسي ٢٢/ ٢٠٨.

وهذه القضايا المتعلقة بتقرير أمهات الأصول تتكرر فى السور المكية، ولكن سورة "يس" تعرض لها من زاوية معينة تحت ضوء معين، مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها، وتتناسق مع إيقاعها، وصورها، وإيحاءاتها .

والمتأمل فى السورة الكريمة، يجد أنها تنقسم ـ حسب عرض سياقها لموضوعاتها ومقاصدها ـ إلى ثلاثة أقسام رئيسية كل قسم يشتمل على مجموعة من الآيات ، تقوم بمعالجة مقصد أو أكثر من مقاصد السورة الكريمة .

القسم الأول: من أول السورة حتى الآية الثانية والثلاثين .

القسم الثانى: من ٣٣ ـ ٦٨ .

القسم الثالث: من ٦٩ ـ ٨٣ (نهاية السورة).

وهذا هو القسم الأول منها، يليه القسم الثانى ثم الثالث ـ إن شاء الله .ونسأ فى الأجل ـ وهو يبدأ من أول السورة حتى الآية الثانية والثلاثين، وقبله مقدمات ضرورية لا غنى عنها ، تتعلق بزمن نزول السورة، ووجه تسميتها بهذا الاسم، وعدد آياتها، وما ورد فى فضلهما ، وعلاقتها بما قبلها، وأهدافها ومقاصدها، والموضوعات التى اشتملت عليها، وخلاصة القول فى الحروف المقطعة وغير ذلك مما يتصل بها ويدور فى فلكها .

١ـ زمن نزول السورة :

سورة "يس" هى السورة السادسة والثلاثون فى ترتيب المصحف الشريف، والحادية والأربعون فى ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الجن، وقبل سورة الفرقان.

وهى مكية، ولذا فهى ذات فواصل قصيرة، وإيقاعات سريعة، ومشاهد متتابعة ومتنوعة، مصحوبة بمؤثرات، تلمس الوجدان الإنسانى وتوقظه، وتدق على الحس دقات متوالية، وتقتحم القلوب المغلقة، وتهز الضمائر المتحجرة، ومن ثم فهى متنوعة، وموحية وعميقة الآثار.

قال القرطبى : وهى مكية بإجماع، إلا أن فرقة قالت: إن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ نزلت فى بنى سلمة من الأنصار، حين أرادوا أن يتركوا ديارهم، وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله ــ ﷺ ــ فقال لهم : (دياركم ، تكتب آثاركم) [١].

قال ابن عطية: وليس الأمر كذلك، وإنما نزلت الآية بمكة ، ولكنها احتج بها عليهم فى المدينة[٢].

وما ذهب إليه ابن عطية هو الصحيح لأن الرواية الصحيحة التى رواها الإمام مسلم ، والإمام أحمد عن جابر بن عبدالله[٣] لم يوجد فيها إشارة صريحة من الرسول ــ ﷺ ــ بأنها نزلت فى بنى سلمة ، وعلى هذا فالآية مكية كبقية السورة .

---

(١) تفسير القرطبى ١٥/ ٥ بتصرف.

(٢) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ٤/ ٤٤٥ .

(٣) راجع هذه الرواية فى تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤٣، وصحيح مسلم ١/٤٦٢، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٣٣٣، وسيأتى ذكرها إن شاء الله عند الحديث عن هذه الآية .

٢ـ وجه تسميتها بهذا الاسم :

سميت سورة "يس" بهذا الاسم؛ لافتتاحها بهذين الحرفين الواقعين فى أولها، لأنها انفردت بهما، فكانا مميزين لها عن بقية السور، وكذلك ورد اسمها عن النبى ـ ﷺ ـ روى أبوداود عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: "اقرءوا "يس" على موتاكم".

ودعاها بعض السلف "قلب القرآن" لوصفها فى قول النبى ـ ﷺ ـ : "إن لكل شئ قلبا، وقلب القرآن "يس" " رواه الترمذى عن أنس[١].

وذكرت بعض كتب التفاسير أسماء أخرى للسورة منها:

١ - "المعمة" : لأنها تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة، وتدفع عنه بلوى الدنيا، وأهوال الآخرة .

٢، ٣ - "المدافعة" و"القاضية" : لأنها تدفع عن صاحبها كل سوء، وتقضى له كل حاجة بإذن الله وفضله[٢].

والتسمية الأولى هى المشهورة، وعليها التعويل.

٣ـ عدد آياتها :

عدد آياتها ثلاث وثمانون عند الكوفيين ، وعند جمهور الأمصار اثنان وثمانون، ويرجع ذلك إلى الخلاف الذى سيأتى ذكره بين البصريين والكوفيين فى الحروف المقطعة آيات مستقلة، أو أجزاء من الآيات التالية لها.

٤ـ ما ورد فى فضلها:

لقد ورد فى فضل هذه السورة، وعلو شأنها عدة أخبار وآثار نكتفى بذكر المشهور منها:

---

(١) راجع : الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٥ ، التحرير والتنوير ٢٢/٣٤٢ .

(٢) راجع على سبيل المثال: روح المعانى ٢٢/ ٣١٢، الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٥، ٦ .

ـ روى الحافظ أبويعلى عن الحسن قال: سمعت أبا هريرة ـ ﷺ ـ يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : "من قرأ "يس" فى ليلة أصبح مغفورا له، ومن قرأ "حم" التى يذكر فيها الدخان أصبح مغفورا له".

قال ابن كثير: إسناده جيد .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن معقل بن يسار ـ ﷺ ـ قال:إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: "البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا، واستخرجت "الله لا إله إلا هو الحى القيوم" من تحت العرش فوصلت بها ـ أى بسورة البقرة ـ و"يس" قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله تعالى والدار الآخرة إلا غفر له، واقرءوها على موتاكم".

قال الحافظ بن كثير: ولهذا قال بعض العلماء: من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى ، وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة، وليسهل عليه خروج الروح، والله تعالى أعلم[1] .

وأخرج الترمذى والدارمى عن أنس، قال النبى ـ ﷺ ـ : "إن لكل شئ قلبا، وقلب القرآن "يس"، ومن قرأ "يس" كتب له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات"[2].

قال الألوسى: ولا يلزم من هذا تفضيل الشئ على نفسه، إذ المراد بقراءة القرآن قراءته دون "يس"، ثم قال ـ بعد أن ذكر ما قاله الخفاجى من أنه يكفى فى صحة التفضيل المذكور، التغاير الاعتبارى، فإن "يس" من حيث تلاوتها مفردة غير كونها مقروءة فى جملته، كما إذا قلت: الحسناء فى الحلة الحمراء أحسن منها فى البيضاء، وقد يكون للشئ مفردا ما ليس له مجموعا مع غيره، كما

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤٠، ٥٤١ .
(٢) سنن الترمذى كتاب فضائل القرآن ٥/ ١٦٢ .

يشاهد فى بعض الأدوية ، والظاهر أنه يكتب لـه الثـواب المـذكور مضاعفا، أى كل حرف بعشر حسنات، ولا بدع فى تفضـيل العمـل القليل على الكثير، فلله تعالى أن يمن بما شاء على مـن شـاء، ألا ترى ما صح أن هذه الأمة أقصر الأمم أعمارا، وأكثرها ثوابا، وإنكار الخصوصيات مكابرة ولله تعالى در من قال:

فـإن تفـق الأنـام وأنـت مـنهم ∴ فـإن المسـك بعـض دم الغـزال[1]

٥ ـ مناسبة سورة "يس" لما قبلها:

وردت سورة "يس" فى المصحف الشريف تالية لسورة "فاطر"، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن أوجه الاتصال والارتباط بينهما.

إن المتأمل فى السورتين الكريمتين يجد أن بينهما اتصالا قويا، وارتباطا وثيقا، ومناسبة من عدة وجوه، يمكن إجمالها فيما يلى:

١ - أن كثيرا مما أجمل فى سورة "فاطر" فصل فى سورة "يـس"، فسورة "يس" تكمل معانى سورة "فاطر"، وتزيدها تفصيلا.

٢ - أنه لما ورد فى آخر سورة "فاطر" قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ [٣٧] وقوله: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [٤٢] والمـراد بـه محمد ـ ﷺ ـ وكانوا قد أعرضوا عنه وكذبوه، وردوا رسالته نفورا واستكبارا؛ افتتح سورة "يـس" بالإقسـام علـى صـحة رسالته، وأنه على صراط مستقيم، وأنه أرسل لينذر قومـا مـا أنذر آباؤهم[2].

٣ - ورد فى سورة "فاطر" الحديث عـن الأدلـة والبـراهين الدالة على وحدانيته ـ تعالى ـ وعظيم قدرته التى منها إدخال الليل فى النهار ، والنهار فى الليل، وتسخير الشمس والقمر، يجرى كـل

(١) روح المعانى ٢٢/ ٣١٣ .

(٢) راجع: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسـور ١٦/ ٩٠، وروح المعانى ٢٢/ ٣١٣ .

منهما بمقدار معين، ومنهاج مقنن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها [١٣] وجاء الحديث عن ذلك مفصلا فى سورة "يس" قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [٣٧ ــ ٤٠] .

٤ - وفى سورة "فاطر" ذكر أن من نعم الله الكثيرة على الناس التى تستوجب الشكر والحمد ، تسخير الفلك فى البحار حاملة الأقوات، وأنواع التجارة من قطر إلى آخر، بفضل من الله ورحمة منه [١٢]، وفى سورة "يس" جاء الحديث عن ذلك بشئ من التفصيل، قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [٤١ ــ ٤٤] .

٥ - وفى سورة "فاطر" ورد التحذير من وسوسة الشيطان، ووجوب معاداته، وعدم طاعته [٦] ، وفى "يس" توبيخ وتقريع لمن أطاعوا الشيطان، واتبعوا خطواته، بعد تحذيرهم منه، ونهيهم عن اتباع خطواته، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [٦٠ ــ ٦٣] .

٦ - وفى "فاطر" ورد أن من مظاهر نعمته ــ تعالى ــ ودلائل قدرته، وبديع صنعه خلق الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان والأشكال فى الجنس الواحد، بل وفى النوع الواحد، وفى الحيوان الواحد [٢٨] وفى "يس" تذكير للمشركين ببعض النعم التى من أهمها الأنعام وما فيها من منافع وفوائد لا تخفى إلا

على من عطلت فيه وسائل الإدراك، وحرم نعمة التدبر والتأمل فى ملكوت الله وما خلق الله .

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [٧١ ــ ٧٣].

٧ - وفى "فاطر" تجد حديثا عن مكانة القرآن الكريم، ومهمته بين الكتب السماوية، وجزاء القراء العالمين به، العاملين بما فيه [٢٩ ــ ٣١] ، وفى "يس" وردت الإشادة بالقرآن الكريم، وبالمنتفعين به، والعاملين بما ورد فيه فى أكثر من موطن(١).

٨ - وتحدثت سورة "فاطر" عن وظيفة الرسل ومهمتهم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [١٨] وهذا المعنى نفسه تناولته سورة "يس" بطريقة أكثر شمولا واتساعا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [١١].

٩ - وفى الآية الحادية عشرة من سورة فاطر أخبر الحق ــ سبحانه ــ أنه خلق الناس أزواجا، أى ذكرا وأنثى، ثم شرح ذلك وفصله فى سورة "يس" فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٣٦] .

١٠ - وفى الآية الحادية عشرة أيضا من سورة فاطر أخبر الحق ــ سبحانه ــ أن الأعمار كالأرزاق محددة ومقدرة فى صحيفة كل إنسان فى اللوح المحفوظ، وفى "يس" ذكر ذلك بطريقة أكثر

(١) راجع سورة "يس" آيات: ٢، ٥، ١١، ٦٩، ٧٠ .

شمولا واتساعا، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [١٢] .

١١ - وفى الآية الرابعة والأربعين من سورة فاطر تذكير للمشركين بما يشاهدونه فى رحلاتهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار تدمير السابقين الذين كذبوا الرسل أمثالهم، وفى "يس" سيقت قصة أصحاب قرية "أنطاكية" ببلاد الشام، وما صار إليه حالهم من هلاك وتدمير، لما كذبوا الرسل.

١٢ - وفى بداية "فاطر" يخبر ـ سبحانه ـ أن الأمور كلها بيده ، فمنه البذل والعطاء ، والمنع والإمساك ، قال تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٢]، وفى نهاية "يس" نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [٨٢، ٨٣].

إلى غير ذلك من أوجه التناسب، ووشائج التقارب والاتصال، التى يهتدى إليها من يكثر التأمل، ويطيل النظر فى السورتين، وهذا يشير إلى ما بين سور القرآن الكريم وموضوعاته ومقاصده من تمام التلاؤم والتناسب، وقوة الترابط والتلاحم، وشدة الائتلاف والتماسك، وهذا على حدته دليل الإعجاز، وشاهد الفضل والامتياز، الذى قلما نجد شيئا منه فى كلام الناس.

٦ ـ أهدافها ومقاصدها والموضوعات التى اشتملت عليها:

إن المتأمل فى سورة "يس" يجد أن الهدف الاساسى والمحور الأصيل الذى تدور حوله موضوعات السورة هو بناء أسس العقيدة، ولذا فهى تركز على إثبات وتقرير أمهات أصول الدين: قضية الألوهية والوحدانية، وقضية الرسالة، وقضية البعث والنشور، نلمس

ذلك فى كثير من آيات السورة، ونجد الحديث عنه يتكرر فى مواضع كثيرة، وبخاصة قضية البعث والنشور.

وفيما يلى عرض لأهداف السورة ومقاصدها حتى يلمس القارئ الكريم ذلك بنفسه، ويكون على بينة منه:

١ - التحدى بإعجاز القرآن الكريم، والتنويه به، والتنبيه على علو مكانته، وسمو منزلته، ببلوغه أعلى درجات الإحكام والإتقان، إذ هو كتاب منزل من رب العالمين ، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾.

٢ - تفخيم وتعظيم شأن الرسول ـ ﷺ ـ وتسليته عما أصابه من قومه من أذى وتثبيت فؤاده بذكر قصص المكذبين للأنبياء والمرسلين من قبله.

٣ - التحذير من عاقبة التكذيب بالوحى والرسالة والكشف عن النهاية البائسة للغافلين المكذبين، وتبشير المهتدين المنتفعين بما ورد فى القرآن الكريم من عظات وهدايات بالثواب العظيم والأجر الكريم.

٤ - إثبات وتقرير عقيدة البعث والنشور بما أقامه من أدلة وبراهين فى الآفاق والأنفس.

٥ - تأكيد حصول الجزاء للمؤمنين وغيرهم، وأن ذلك مدون فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

٦ - ضرب الأمثال للفريقين للعظة والاعتبار.

٧ - بيان أن أهل الكفر والجحود يلجأون عادة ـ بعد إقامة الحجة عليهم إلى التهديد والوعيد .

٨ - بيان ما يلاقى الداعون إلى التوحيد والدين الحق فى كل زمان ومكان من شدائد وأهوال.

٩ - توبيخ كفار مكة على عدم اعتبارهم بمن سبقهم.

١٠ - تبيان قدرة الله ـ تعالى ـ ووحدانيته وعلمه ورحمته الشاملة .

١١ - التحذير من حلول العذاب بغتة .

١٢ - التذكير بواجب الشكر على النعم بالتقوى والإحسان، وصرفهما فى مرضاة واهبهما، وحمده عليها .

١٣ - بيان نعيم الجنة، والحث على التمتع به .

١٤ - التحذير من عقوبة الله فى الدنيا بالمسخ ونحوه .

١٥ - توبيخ الكافرين على اتباعهم همزات الشياطين .

١٦ - تأكيد عداوة الشيطان للإنسان .

١٧ - تنزيه القرآن الكريم عن أن يكون مفترى صادرا من شاعر، وبيان أن الحكمة من نزوله، هى أن ينذر الرسول الأحياء من أهل الإيمان، وهم الذين استعدت قلوبهم لاستقبال دلائل الهدى، وموجبات الإيمان .

١٨ - تنزيه الله ـ تعالى ـ عن العجز، وسائر النقائص .

١٩ - تقرير أن الله بيده، وتحت قهره كل الملكوت، وإليه وحده مرجع الخلائق .

هذا فيما يتعلق بأغراض السورة الكريمة ومقاصدها .

وأما بالنسبة للموضوعات التى تناولتها السورة، فإننا نلاحظ ـ كما ذكرنا من قبل ـ أن الحديث فيها يدور حول ثلاثة موضوعات أساسية، ألا وهى: الوحدانية، والرسالة ، والحشر .

وإلى جوار ذلك موضوعات أخرى تتفرع عنها، وتدور فى فلكها، مصحوبة بمؤثرات قوية، تلمس قلوب البشر، وتوقظها، وهى ترى مصداقها فى واقع الوجود، لكى تبادر إلى الإقرار بالخالق وتوحيده، والإذعان والتسليم بأنه هو المبدئ والمعيد، والمحى والمميت، الذى لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة، بيده ملكوت كل شئ، وإليه يرجع كل شئ .

ويتضح ذلك ، ويتجلى من خلال هذا العرض العام لموضوعات السورة ومحتواها .

بدأت السورة الكريمة بالإقسام بالقرآن الحكيم على صدق رسالة سيدنا محمد ـ ﷺ ـ وأنه أرسل على طريق واضح، ونهج مستقيم، لا اعوجاج فيه ولا اضطراب؛ لأنه تنزيل رب العالمين، العزيز الذى لا يغلب، الرحيم الذى وسعت رحمته كل شئ .

ثم بينت السورة الحكمة من إرسال هذا الرسول الكريم، وهى إنذار كفار قريش الذين لم يأتهم نذير من قبله، فهم فى غفلة عن الشرائع التى فيها سعادة البشر، وإصلاح المجتمع ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ .

ثم كشفت السورة عن مصير هؤلاء الغافلين المكذبين ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وفى المقابل وضحت الجزاء العادل لمن انتفع بالنصح والإرشاد، وخشى الرحمن دون أن يراه ، قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ .

ثم انتقلت إلى الحديث عن عقيدة البعث والجزاء فذكرت أن الناس سيبعثون وسيحاسبون على كل صغيرة وكبيرة إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وأن كل ذلك مدون ومثبت فى كتاب مسطور، وهذا من شأنه أن يعمل على إيقاظ النفوس، ويجعلها دائما على حذر، وفى حالة استعداد تام لهذا الموقف الرهيب، واليوم العصيب الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين .

وبعد عرض قضية الوحى والرسالة، وقضية البعث والجزاء، فى هذه الصورة التقريرية عادت السورة لعرضهما فى صورة قصصية، فذكرت قصة أصحاب القرية "إنطاكية" وما دار بينهم وبين الرسل من محاورات، وما حل بهم من هلاك وتدمير، للتحذير من عاقبة التكذيب بالوحى والرسالة على طريقة القرآن فى استخدام القصص للعظة والاعتبار .

وذكرت السورة ضمن هذه القصة موقف الداعية المؤمن "حبيب النجار" الذى نصح قومه باتباع الرسل الذين جاءوا لتبليغ أوامر الله دون أن يطلبوا منهم أجرا، فما كان من قومه إلا أن قتلوه فأدخله الله الجنة، ولم يمهل المجرمين المكذبين بل انتقم منهم، فأهلكهم بصيحة واحدة أتت على جميعهم، فإذا هم أموات لا حراك بهم.

وفى هذا ما لا يخفى من تهوين أمرهم، وتحقير شأنهم، وتفخيم وتعظيم شأن رسل الله.

ثم عقبت السورة بعد ذلك بالتعجب من حال هؤلاء المهلكين، والدعوة إلى الاتعاظ والاعتبار بذلك، من قبل فوات الأوان ، قال تعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾.

ثم انتقلت السورة إلى توبيخ كفار قريش؛ لأنهم لم يتعظوا ولم يعتبروا بما حل بمن سبقهم من الهلاك والتدمير، بسبب تكذيبهم لرسلهم، وإعراضهم عن دعوة الحق.

ولما كان كثير من أهل الجهل، وذوى الحمية والأنفة لا يبالون بالهلاك فى متابعة الهوى اعتمادا على أن موتة واحدة فى لحظة يسيرة أهون من حمل النفس على ما لا تريد، فيكون لهم فى كل حين موتات، أعقب هذا ببيان أن الأمر غير منقض بالهلاك الدنيوى، بل هناك من الخزى والذل والهوان والعقوبة والإيلام ما لا ينقضى أبدا.

قال تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴾ ثم أردفت السورة بعد ذلك بما يدل على أن البعث ممكن، وليس بمستحيل، إبطالا لما اشتملت عليه اعتقادات الكفار، من إنكار البعث ومن الإشراك بالله.

قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ فكان الواجب

عليهم شكران هذه النعم بعبادة بارئها وخالقها، وترك عبادة الأصنام التى لا تملك لهم نفعا، ولا يمكن أن تجلب عليهم ضررا.

ثم تأخذ السورة بعد ذلك فى استعراض دلائل القدرة والوحدانية من خلال تلك المشاهد الكونية، التى تلفت النظر، وتسترعى الانتباه، ولكنهم ـ لعمى بصيرتهم ـ يمرون عليها معرضين غافلين دون تأمل أو تفكر، وهى كثيرة ومتنوعة وموحية، منها مشهد الليل ينزع عنه النهار، فتأتى ظلمة الليل الذى كان ضياء النهار ساترا له.

ومشهد الشمس تجرى بقدرة الله فى فلك لا تتعداه، ثم مشهد القمر يتدرج فى منازله حتى يعود كالعرجون القديم.

ثم مشهد السفن التى تمخر عباب الماء، فتسير فى البحار بقدرة الله، تحمل زادهم وأمتعتهم من بلد إلى آخر، دون أن يصيبهم أذى، وكلها آيات عظيمات، تدل فى وضوح وجلاء على قدرة الله ـ تعالى ـ الدالة على واسع رحمته بعباده وعظيم لطفه.

ثم ذكرت السورة بعد ذلك أن هؤلاء المشركين كما أعرضوا عن النظر فى الآيات المحسوسة والمرئية أعرضوا أيضا عن الآيات المنزلة من عند ربهم وحذرتهم من أن يحل بهم مثل ما حل بالأمم السابقة بسبب تكذيبهم لرسلهم، وإعراضهم عن دعوة الحق.

ثم عادت السورة الكريمة للحديث عن قضية البعث والنشور، فذكرت إنكارهم للبعث والجزاء،واستبعادهم لقيام الساعة،وما قالوه للمؤمنين على سبيل الاستهزاء والتهكم ﴿متى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ثم جاء الرد الحاسم بأن البعث حق لا شك فيه، وأنه سيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، وإذ ذاك يخرجون من القبور مسرعين، ثم ينادون بالويل والثبور حين يرون العذاب، ويقولون: من الذى أخرجنا من قبورنا التى كنا فيها؟، فيجابون بأن ربكم هو الذى قدر هذا، ووعدكم به على ألسنة رسله الكرام، وحينئذ توفى كل نفس جزاء ما كسبت من خير، أو اكتسبت من شر. جزاء وفاقا.

فالمؤمنون يتمتعون بما أعده الله لهم فى الجنة من مآكل ومشارب، ولذات جسمانية وروحية، تشغلهم عما سواه، إذ يرون فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

وأما الكافرون فيطلب منهم فى هذا اليوم العصيب التفرق والانفصال عن عباد الله المؤمنين، زيادة فى الذل والهوان، ومضاعفة العذاب، ثم يقال لهم على سبيل التوبيخ: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ .

وبعد هذا التوبيخ والتبكيت، يقال لهم على سبيل التحقير والإهانة والتهكم ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

وهم فى هذا اليوم ينكرون ما اجترحوا فى الدنيا من الشرور والآثام، ظانين أن هذا يروج على الله، وحينئذ يختم على أفواههم فلا تنطق، وتتكلم أيديهم بما عملوا، وتشهد عليهم أرجلهم بما اكتسبوا .

ثم ذكرت السورة بعد ذلك تهديدا عنيفا لهؤلاء الكفرة الفجرة، ولكل من كان على شاكلتهم، بأن الله ــ جلت قدرته ــ قادر على أن يسلبهم نعمة الإبصار فى الدنيا ، وقادر على منعهم من الحركة، فلا يقدرون على ذهاب ولا مجئ، ولا غدو ولا رواح، وجعل لهم دليلا محسوسا من أنفسهم، وهو أنه كلما طال عمر الإنسان رد إلى الضعف والعجز بعد القوة والنشاط، وصار إلى الهرم بعد الشباب، قال تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

وبعد هذا العرض المفصل لأصول العقيدة الثلاثة المؤيد بالأدلة والبراهين، عادت السورة الكريمة إلى إجمال ما سبق أن فصلته، فأوضحت:

١ - أن محمدا رسول الله حقا وصدقا، وليس بشاعر أو كاهن - كما يزعمون - وأن ما جاء به هو وحى من عند الله، وقرآن مبين، نزل به الروح الأمين على قلبه، لينذر من كان حى القلب، مستنير البصيرة، فحاشى أن يكون شعرا ، أو أن يمت إليه بنسب .

٢ - أن الله وحده هو المستحق للعبادة والشكر؛ لأنه هو المنعم المتفضل بالنعم كلها، والتى يعد تذليل الأنعام، والانتفاع بها فى الطعام والشراب واللباس ، من أعظمها، فكان ينبغى عليهم أن يقابلوها بالشكر والتعظيم، والإجلال والتقدير، ولكنهم - لسفاهة عقولهم وتفاهة تفكيرهم - ما زادهم ذلك إلا ضلالا، وإقبالا على عبادة من لا يضر ولا ينفع من الأوثان والأصنام، وذلك نهاية الغى والضلال .

٣ - البعث واقع لا محالة، والإنسان مجازى على عمله حتما، وليس ذلك على الله بعزيز، وإنكار ذلك مكابرة، وكيف ذلك، وهو الذى - جلت قدرته - ابتدأ خلق الإنسان من نطفة قذرة، وماء حقير، ثم جعله يتدرج فى أطوار النمو إلى أن صار بشرا سويا .

وهو الذى أوجد النار المحرقة من الشجر الأخضر الذى لم يكن يخطر على البال أن النار تنبعث منه، وهو الذى خلق السماوات والأرض مع ضخامة جرمهما، وعظم شأنهما، واشتمالهما على كثير من العجائب والغرائب،التى يعجز البشر جميعا عن تفسيرها والإحاطة بكل ما فيها من آيات وأسرار، مهما أوتوا من علم وفهم وقدرة على الاستنباط ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

أو ليس الذى قدر على إيجاد كل ذلك بقادر على أن يحيى الموتى، بلى وهو الخلاق العليم .

ثم ختمت السورة الكريمة بهذا الختم الرائع الدال على كمال القدرة، وعظمة الملك والسلطان الذى تفرد به خالق الأكوان.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

٧ ـ الحروف المقطعة وخلاصة القول فيها:

تبدأ السورة الكريمة بحرفين من حروف الهجاء العربى هما: "الياء، والسين" وترسم هكذا "يس"، وينطق بكل حرف مستقلا هكذا "يا. سين" ولا يتقنه القارئ العادى إلا بالسماع والمشافهة.

وقد ورد فى القرآن الكريم تسع وعشرون سورة مفتتحة بحرف أو أكثر من حروف الهجاء العربى، أولها البقرة، وآخرها القلم، وكلها مكية ما عدا البقرة وآل عمران، وفواتح هذه السور ليس على وتيرة واحدة، فمنها ما جاء على حرف واحد مثل: "ص، ق، ن"، وقد ورد ذلك فى ثلاث سور هى هذه التى سبق ذكرها.

ومنها ما جاء على حرفين، مثل: "طه، يس" وقد ورد ذلك فى تسع سور هى: طه، النمل، يس، غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

ومنها ما جاء على ثلاثة أحرف، وهو الأكثر، وقد ورد ذلك فى ثلاث عشرة سورة، هى: البقرة، وآل عمران، ويونس، وهود، ويوسف، والحجر، وإبراهيم، والشعراء، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة.

ومنها ما جاء على أربعة أحرف، مثل "المص" وقد ورد ذلك فى سورتين هما: الأعراف، والرعد.

ومنها ما جاء على خمسة أحرف، مثل "كهيعص" وقد ورد ذلك فى سورتين أيضا، هما: مريم، والشورى.

وهى بهذا التنويع تماثل الكلمات المجردة من الزيادة فى كلام العرب، فهى لا تزيد عن خمسة أحرف، وذلك أقوى فى التحدى بها، إذ أنها جاءت على نفس النمط البنيوى لكلماتهم، مفردة، ومركبة من حرفين فصاعدا إلى الخمسة، وليس من جنس آخر.

وعدد هذه الحروف أربعة عشر حرفا، هى: الألف، والحاء، والراء، والسين، والصاد، والطاء، والعين، والقاف، والكاف، واللام، والميم، والنون، والهاء، والياء.

ولقد أطال علماء التفسير وعلوم القرآن النظر فى هذه الحروف، وأكثروا من التأمل فيها، فلاحظوا أن هذه الحروف تمثل نصف حروف الجاء العربى، وهى أيضا تمثل النصف بالنسبة لصفات الحروف، ففيها من المهموسة نصفها، ومن المجهورة نصفها، ومن الشديدة نصفها، ومن الرخوة نصفها، ومن المطبقة نصفها، ومن المنفتحة نصفها، ومن المستعلية نصفها، ومن المستفلة نصفها، ومن حروف القلقلة نصفها.

ثم إن الحروف التى ألغى ذكرها مكثورة بالمذكورة، فسبحان الذى دقت فى كل شئ حكمته[1].

ولاحظوا كذلك، أن هذه الحروف هى أكثر الحروف ترددا فى كلام العرب لخفتها، وأن الحروف التى تبدأ بها تلك السور تتردد فيها بكثرة عن غيرها من السور.

وبهذا ترى أن ما ذكر من الحروف له حق التمثيل لما أهمل منها، وزاد عليه ببعض الخصائص، التى وقفت على شئ منها فيما سبق.

واكتفى بذكر هذه الحروف لحصول الغرض، وهو الإشارة إلى العناية بالكتابة، وحق الإيجاز فى الكلام.

---

(١) انظر : الكشاف ١٠٠ـ١٠٣ بتصرف وتلخيص.

وبذلك يكون ذكر مجموع هذه الفواتح فى سور القرآن، من المعجزات العلمية المستمرة على ممر العصور، وتعاقب السنين، لما أودعه الله فيها من المعانى الحكمية، والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية، التى لم تبلغ إليها عقول البشر فى عصر نزول القرآن، وفى عصور بعده متفاوتة، وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين: إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين؛ لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية، والحكمية، والعلمية، والأخلاقية، وهو دليل تفصيلى لأهل تلك المعانى، وإجمالى لمن تبلغه شهادتهم بذلك[1].

هذا وغيره من الخصائص دفع علماء التفسير وغيرهم إلى كثرة البحث والتنقيب، وإعمال الفكر، بغية الوقوف على معانى هذه الحروف، ومعرفة المراد منها، حتى تجاوزت وجوه الرأى فيها أربعين وجها.

وخلاصة القول أن ما ورد عنهم يمكن حصره فى مذهبين[2]:

المذهب الأول: أن هذا علم مستور، وسر محجوب، استأثر الله ـ تبارك وتعالى به، فهو من المتشابه الذى نؤمن به على أنه من عند الله دون تأويل ولا تعليل، وهذا هو رأى جمهور السلف، فقد ورد عن الشعبى، وسفيان الثورى، وجماعة من المحدثين أنهم قالوا: هى سر الله فى القرآن، ولله فى كل كتاب من كتبه سر، فهى من المتشابه الذى انفرد الله تعالى بعلمه، ولا يجب أن يتكلم فيها، ولكن نؤمن بها، وتقرأ كما جاءت.

---

(١) راجع: التحرير والتنوير ١/ ١٠٤، ١٠٥، ٢١٦.

(٢) راجع فى هذا الباب: تفسير الكشاف ١/ ، وتفسير الفخر الرازى ٢/ ٣، وتفسير القرطبى ١/ ١٧٢ ـ ١٧٥، وتفسير أبى السعود ١/ ٢٤، البحر المحيط ١/ ٣٤، البرهان فى علوم القرآن ١/ ٢٧٠.

ويروى عن ابن عباس أنه قال: عجزت العلماء عن إدراكها، وروى عن أبى بكر الصديق أنه قال: لله فى كل كتاب سر، وسره فى القرآن أوائل السور، وعن على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ أنه قال: لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى، وذكر أبوالليث السمرقندى عن عمر وعثمان وابن مسعود، أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر، ولم يرتض هذا المذهب كثير من المحققين وقالوا: لا يجوز أن يرد فى كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوما للخلق، واحتجوا بأدلة عقلية ونقلية، ذكرها العلامة الرازى فى تفسيره الكبير(١).

المذهب الثانى: مذهب جماهير المفسرين والمحققين من العلماء، قالوا: إن المراد من هذه الفواتح معلوم، ويجب أن نتكلم فيها، ونلتمس الفوائد التى تحتها، والمعانى التى تتخرج عليها، ولكنهم اختلفوا فى بيان المراد منها على أقوال كثيرة(٢)، نكتفى هنا بذكر أرجحها، وأقربها إلى بيان لطائف القرآن، وطبيعة البيان، وقضية الإعجاز.

وهذا القول يتلخص فى أن هذه الحروف أسماء مسمياتها الحروف الهجائية التى ركب منها الكلم، وإنما جئ بها فى أوائل السور، على لسان النبى الأمى الذى لم يكن يقرأ أو يكتب، بيانا لإعجاز القرآن، وإمعانا فى التحدى وإقامة الحجة على عجز العرب، وإيقاظا لهم وتنبيها على أن هذا القرآن الذى عجزوا عن الإتيان

(١) راجع: التفسير الكبير ٢/ ٣.

(٢) منها: أنها اسم الله الأعظم، أو أنها من أسماء الله تعالى، وقيل: إنها أسماء للسور، وقيل: هى من أسماء القرآن، وقيل: هى أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلهما، وقيل: هى حروف مقطعة من أسماء وأفعال، فالألف من أنا واللام من: الله، والميم من: أعلم، وقيل غير ذلك.

بمثله، إنما هو كتاب عربى مكون من حروف هجائية، ينطق بها كل عربى: أمى أو متعلم، وهم يستخدمون هذه الحروف ويعتمدون عليها فى مخاطباتهم، وكتاباتهم، وجميع أجناس كلامهم وضروبه، ومع ذلك فقد عجزوا جميعا عن الإتيان بما يدانيه، مع حرصهم على معارضته، وتظاهرهم عليها، وهم أساطين الفصاحة، وفرسان البلاغة والبيان، فقامت الحجة عليهم أنه كلام الله، وليس من كلام البشر .

ومما يؤيد هذا الرأى ويعضده ما ذكره:

١ - الزمخشرى فى كشافه من أن هذه الحروف لم ترد كلها مجموعة فى أول القرآن، وإنما كررت ليكون أبلغ فى التحدى والتبكيت، كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدى بالصريح فى أماكن[١].

٢ - وما ذكره الحافظ ابن كثير فى تفسيره، حيث يقول: "ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف، فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة"[٢].

قما من سورة من هذه السور إلا ويأتى فيها ذكر القرآن الكريم والاحتجاج له بعد الحروف المقطعة مباشرة، ما عدا "مريم، والعنكبوت، والروم، ولقمان" فقد جاء الحديث عنه فى ثنايا هذه السور[٣].

٣ - وما ذكرته الدكتورة عائشة عبدالرحمن فى الإعجاز البيانى للقرآن، من أن أكثر السور المبدوءة بالحروف المقطعة نزلت

---

(١) الكشاف ١/١٠٠ .
(٢) راجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٨ .
(٣) راجع سورة مريم: الآيات: ١٦، ٤١، ٥١، ٥٤، ٥٦، ٩٧، سورة العنكبوت من الآية: ٤٥ ــ ٥١، وسورة الروم: من ٥٨ ــ ٦٠، وسورة القلم الآيات: ٤٤، ٥١، ٥٢ .

فى المرحلة التى بلغ فيها عتو المشركين أقصى المدى،وأفحشوا فىحمل الوحى على الافتراء والسحر والشعر والكهانة،فواجههم القرآن بالتحدى، وعاجزهم مجتمعين ومن ظاهرهم من الجن أن يأتوا بسورة من مثله مفتراة، أو فليأتوا بعشر سور، أو بحديث مثله، ما داموا يزعمون أن محمدا افتــراه وتقولــه، وأفحمــوا وعجزوا جميعا عن أن يأتوا بسورة من مثله، وإنه لكتاب عربى مبين، ألفاظه وحروفه هى حروف معجمهم، تلك الحروف التــى تقرأ مقطعة، مفردة أو مركبة، فلا تعطى دلالة ما، لكنها حــين تأخذ مكانها فى القرآن يتجلى سرها البيانى المعجز[1].

كيفية النطق بها ـ محلها من الإعراب ـ كونها آية أو بعض آية[2]:

ينطق بهذه الحروف ســاكنة ســكون الموقــوف عليــه، دون إعراب، إذ لم تكن معمولة لعوامل، حالها فــى ذلــك حــال الأعــداد المسرودة، حين تقول: "ثلاثة، أربعة، خمسة" وكحال أسماء الأشــياء التى تملى على الجارد لها، إذ تقول مثلا: "ثوب ــ بساط ــ ســيف" دون إعراب، أما إذا أخبرت عنها، فإنها تعرب، واختلف فى إعرابها، وذلك بحسب المراد منها، فإن جعلت حرفا للتهجى، فهى محكية، ولا تقبل إعرابا؛ لأنها حينئذ بمنزلــة أســماء الأصــوات، لا يقصــد إلا صدورها، وهذا مذهب الخليل وسيبويه .

وكذلك لا تعرب إن جعلت سرا بــين الله ورســوله، أو ســرا استأثر الله به؛ لأن الإعراب فرع المعنى[3].

---

(١) انظر : الإعجاز البيانى للقرآن صـــ

(٢) راجع هذه الأمور فى تفسير القرطبــى ١/ ١٧٥، روح المعــانى ١/١٩٤، معانى القرآن للنحاس ١/ ٧٥، التبيان للعكبــرى ١/١٠، التحرير والتنوير ١/ ٢١٧، ٢١٨ .

(٣) انظر: التفسير الموضوعى للقرآن صـــ٩٢ نقلا عن: فتح الرحمن فى تفسير سورة آل عمران صـــ٤٧ .

وإن جعلت أسماء للسور، أو للقرآن، أو لله تعالى، كان لها موضع من الإعراب على ثلاثة أوجه: الرفع، والنصب، والجر.

فالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: هذه ألم، وهذه يس، والنصب على أنها مفعول به لفعل محذوف، تقديره: اتل، أو اقرأ، وما شابه ذلك، والجر على القسم، وحرف القسم محذوف، وبقي عمله بعد الحذف، لأنه مراد، فهو كالملفوظ به، كما قالوا: الله ليفعلن فى لغة من جر، أو بتقدير حرف جر مناسب ، مثل: تفكر فى ألم.

واختلف فى كون هذه الفواتح آيات مستقلة، فذهب البصريون إلى أنها ليست بآيات مستقلة، بل هى أجزاء من الآيات الموالية لها، وهكذا كان السلف ــ رضوان الله عليهم ــ يفعلون، فقد كان يقرأونها متصلة بما بعدها، ففى جامع الترمذى فى كتاب التفسير فى ذكر سبب نزول سورة الروم: فخرج أبوبكر الصديق، يصيح فى نواحى مكة : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ ، وفى سيرة ابن إسحاق من رواية ابن هشام عنه: فقرأ رسول الله ــ ﷺ ــ على عتبة بن ربيعة ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ ، حتى بلغ قوله ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ الحديث.

وقال الكوفيون: إنها آيات مستقلة، وهو الأظهر؛ لأن هذه الفواتح دلالة تعريضية كنائية، إذ المقصود بها ــ كما سبق ــ إظهار عجز العرب وتقريعهم، أو نحو ذلك، فهى تطابق مقتضى الحال مع ما يعقبها من الكلام، ولا يشترط فى دلالة الكلام على معنى كنائى، أن يكون له معنى صريح، بل تعتبر دلالة المطابقة فى هذه الحروف تقديرية، إن قلنا باشتراط ملازمة دلالة المطابقة لدلالة الالتزام.

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن والرسول والمرسل إليهم

قال الله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ [الآيات ١ ــ ١٢] .

بدأت السورة الكريمة بهذين الحرفين من حروف الهجاء العربى للتحدى بإعجاز القرآن الكريم، والتنبيه على أن الله تعالى فى قرآنه العظيم أسرارا، استأثر بها، أو تفضل بها على من يشاء من عباده من أهل الرسوخ العلمى.

والذى عليه الأكثر أن هذين الحرفين من الحروف المقطعة التى يفتتح بها بعض سور القرآن الكريم، وقد سبق الحديث عنها مفصلا.

وقيل معناه: يا إنسان بلغة طئ، على أن أصله يا أنيسين، فاقتصر على شطره لكثرة النداء به، وقيل معناه: يا سيد البشر، وقيل: هو اسم للقرآن، أو للسورة .

وقرأ جمع بسكون النون مدغمة فى الواو التى بعدها، وقرأ آخرون بسكون النون مظهرة، والقراءتان سبعيتان، وقرأ الكلبى بضم النون، إما على أنها خبر لمبتدأ محذوف، وإما على أنها حركة بناء كحيث، ومنذ، وقرأ ابن أبى إسحاق وعيسى بفتح النون، على أنها مفعول به لفعل محذوف، وإما على أنها حركة بناء كأين.

وقرأ أبو السمال، وابن أبى إسحاق أيضا بكسرها، وخرج على أنه للتخلص من التقاء الساكنين[1].

وقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قسم منه تعالى بكتابه العزيز المحكم بعجيب النظم وبديع المعانى ، على أن محمدا من جملة المرسلين الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة، وليس بشاعر ولا كاهن كما يزعم الكفار.

والابتداء بالقسم يدل على أن المقسم عليه أمر عظيم، والأمر العظيم تتوفر الدواعى على الإصغاء إليه، وكان العرب يتحرزون من الأيمان الفاجرة، ويقولون: إنها توجب خراب العالم، وصحح النبى ـ ﷺ ـ ذلك بقوله: (اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع) ، وكان من المعلوم أن النبى ـ ﷺ ـ وأصحابه يعظمون القرآن غاية التعظيم، وكان اليمين به موقوفا عليه عند الكفرة[2].

"والقرآن" مصدر نحو: رجحان، وكفران، مأخوذ من قولهم: قرأت الشئ إذا جمعته، وضممت بعضه إلى بعض؛ لأنه آى مجموعة، وقولهم: ما قرأت هذه الناقة سلى قط، أى: لم ينضم رحمها على ولد.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، قال ابن عباس: إذا جمعناه وأثبتناه فى صدرك فاعمل به، وقد خص بالكتاب المنزل على محمد ـ ﷺ ـ من وقت مبعثه إلى وفاته، فصار له كالعلم.

قال بعض العلماء: والسر فى تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله، لكونه جامعا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما

---

(١) راجع: روح المعانى ٢٢/ ٣١٥، الفتوحات الإلهية ٦/ ٢٧٤ .
(٢) انظر: تفسير الفخر الرازى ٢٦/ ٤٢ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٩/٣٠١ .

أشار إليه تعال بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[1].

و"الحكيم" يجوز أن يكون بمعنى المحكم بفتح الكاف، أى المجعول ذا إحكام، والإحكام: الإتقان بماهية الشئ فيما يراد منه، فالقرآن هو الكتاب المحكم الذى لا يلحقه تغيير ولا تبديل، ولا يعتريه تناقض أو بطلان، فإن كل محكم ــ كما يشير إليه استعمالات مادة الإحكام فى اللغة ــ يمنع بإحكامه تطرق الخلل والفساد إلى نفسه أو غيره، يقال: أحكم الأمر، أى أتقنه ومنعه من الفساد، ويقال: حكم نفسه، وحكم الناس، أى منع نفسه، ومنع الناس عما لا يليق، وسميت الحكمة حكمة؛ لأنها تمنع المتحلى بها عما لا ينبغى ولا يليق.

ويجوز أن يكون بمعنى: صاحب الحكمة، إذ القرآن وضع كل شئ فى موضعه، فهو لذلك حكيم، ووصفه بذلك يكون من قبيل المجاز العقلى؛ لأنه محتو عليها، وناطق بها.

ويفصح صاحب الظلال عن بلاغة التعبير بهذا الوصف، وروعة تصويره للمراد، وذلك حيث يقول: "ويصف القرآن ــ وهو يقسم به ــ بأنه "القرآن الحكيم"، والحكمة صفة العاقل، والتعبير على هذا النحو، يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة، وهى من مقتضيات أن يكون حكيما، ومع أن هذا مجاز إلا أنه يصور حقيقة ويقربها، فإن لهذا القرآن لروحا إ وإن له لصفات الحى الذى يعاطفك وتعاطفه، حين تصفى له قلبك، وتصغى له روحك!، وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار، كلما فتحت له قلبك، وخلصت له بروحك!، وإنك لتشتاق منه إلى ملامح وسمات، كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته، حين تصاحبه فترة وتأنس به، وتستروح ظلاله!، ولقد كان

(١) انظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن صـ٤١٤ .

رسول الله ـ ﷺ ـ يحب أن يسمع تلاوة القرآن من غيره، ويقف على الأبواب ينصت إذا سمع من داخلها من يرتل هذا القرآن، كما يقف الحبيب وينصت لسيرة الحبيب!

والقرآن حكيم: يخاطب كل أحد بما يدخل فى طوقه، ويضرب على الوتر الحساس فى قلبه، ويخاطبه بقدر، ويخاطبه بالحكمة التى تصلحه وتوجهه.

والقرآن حكيم: يربى بحكمة وفق منهج عقلى ونفسى مستقيم، منهج يطلق طاقات البشر كلها مع توجيهها الوجه الصالح القويم، ويقرر للحياة نظاما كذلك يسمح بكل نشاط بشرى فى حدود ذلك المنهج الحكيم"(١).

والقرآن متة محكم ومنه متشابه، كما تبين الآية السابعة من سورة آل عمران، والآية الأولى من سورة هود تبين أن القرآن كله محكم، والآية الثالثة والعشرون من سورة الزمر تبين أن القرآن كله متشابه، والحقيقة أنه لا تعارض ولا تناقض بين ما ورد فى الآيات الثلاث، فالقرآن الكريم كله محكم معناه: أن القرآن الكريم كتاب جليل القدر، محكم النظم، جيد السبك، أحكم نظمه وأسلوبه، وأتقن معناه وفحواه، بحيث لا يتطرق إليه شك، ولا يلحقه تناقض أو بطلان، ولا يعتريه خلل ولا فساد، كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾، وعلى هذا المعنى يفسر قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾.

ومعنى أن القرآن الكريم كله متشابه، أنه يشبه بعضه بعضا فى الهداية والحسن، والبلاغة والفصاحة، وعدم المفاضلة بين آياته، فهو على درجة واحدة فى كماله وجلاله، وعلو منزلته، وسمو معانيه، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ

(١) فى ظلال القرآن ٥/ ٢٩٥٨ .

﴿ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] وعلى هذا المعنى نفهم قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ .

أما آية آل عمران فقد أوضحت أن القرآن الكريم بعضه محكم، وبعضه متشابه، فما المراد بكل منهما؟ لقد تعددت آراء العلماء فى محاولة الوصول إلى وضع ضوابط تفصل بين النوعين[1]، لا يتسع المقام لسردها، وخلاصة هذه الآراء: أن المحكم: ما كان واضح الدلالة، ظاهر المعنى، بين المراد، لا التباس فيه، ولا غموض، ولا احتمال.

والمتشابه: ما كان مشتبه الدلالة، متشعب المعنى، محتملا لأكثر من وجه، لا يدرك معناه، ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق، والتأمل الأنيق؛ ولذا فهو يخفى على كثير من الناس.

وقوله ــ سبحانه ــ : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ جواب القسم ، وجئ به مشتملا على أكثر من مؤكد، لرد إنكار الكفرة بقولهم فى حقه ــ عليه الصلاة والسلام ــ : ﴿ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ ، وهذه الشهادة منه ــ تعالى ــ من جملة ما أشير إليه بقوله: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾.

ومجئ التعبير على هذا النحو يوحى بأن إرسال الرسل أمر مقرر، له سوابق مقررة، فليس هو الذى يراد إثباته، إنما المراد أن يثبت ــ سبحانه ــ أن محمدا ــ ﷺ ــ من هؤلاء المرسلين، ويوجه الخطاب بهذا القسم إلى سيدنا محمد ــ ﷺ ــ ولا يوجهه إلى المنكرين المكذبين، ترفعا بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل أو مناقشة، إنما هو الإخبار المباشر من الله لرسوله.

---

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن ٢/١ ، وتفسير الفخر الرازى ١٧٨/٧، وروح المعانى ٣/ ٨٠ .

والله ــ سبحانه ــ يقسم على أن محمدا مرسل من عنده، وما به ــ سبحانه ــ من حاجة إلى القسم، ولكن هذا القسم منه، بالقرآن وحروفه، يخلع على المقسم به عظمة وجلالا، فما يقسم الله ــ سبحانه ــ إلا بأمر عظيم، يرتفع إلى درجة القسم به واليمين!، وفى هذا تكريم ، وتشريف للنبى ــ ﷺ ــ فلم يرد فى القرآن أنه ــ سبحانه ــ أقسم لأحد من أنبيائه بالرسالة سواه.

قال صاحب تفسير صفوة البيان: قال بعض العلماء: "واعلم أن الأقسام الواقعة فى القرآن، وإن وردت فى صورة تأكيد المحلوف عليه، إلا أن المقصود الأصلى بها تعظيم المقسم به؛ لما فيه من الدلالة على اتصافه ــ تعالى ــ بصفات الكمال، أو على أفعاله العجيبة، أو على قدرته الباهرة ، فيكون المقصود من الحلف: الاستدلال به على عظم المحلوف عليه، وهو هنا عظم شأن الرسالة، كأنه قال: إن من أنزل القرآن ــ وهو ما هو فى عظم شأنه ــ هو الذى أرسل رسوله محمدا ــ ﷺ ــ"[1].

وقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ خبر ثان لـ"إن" المذكورة فى جواب القسم، ومعناه: إنك يا محمد مرسل على طريق واضح، ودين قويم، وشرع مستقيم .

وكون محمد ــ ﷺ ــ مرسل على صراط مستقيم أمر معلوم، لا يحتاج إلى إخبار، فكل الرسل ــ كما هو معلوم ــ أرسلوا على صراط مستقيم، وإذا كان الأمر كذلك، فما الفائدة من إتباع الخبر الأول بهذا الخبر ؟

أجاب عن ذلك كثير من المفسرين بما خلاصته، أن ليس الغرض من هذا الخبر التمييز بين سيدنا محمد ــ ﷺ ــ وبين الأنبياء السابقين عليه، وإنما الغرض الجمع بين حال الرسول ــ ﷺ ــ وبين

(١) صفوة البيان ٢/ ٢١٥ .

حال دينه، وسلكهما فى نظام واحد، تفخيما لشأنهما ، وسلوكا لطريق الإيجاز والاختصار، وليكون العلم بأن دينه صراط مستقيم علما مستقلا لا ضمنيا[1].

والمراد بالصراط المستقيم : دين الإسلام الموصل إلى الغاية المرجوة فى الآخرة، وهى الفوز بالجنة، شبه بطريق مستقيم لا اعوجاج فيه، وهو الذى يوصل السائر فيه إلى غايته بيسر وسهولة، دون حيرة أو متاعب، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

وجئ به منكرا للدلالة على أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة على صراط مستقيم، لا يكتنه وصفه، وفى هذا من التفخيم والتعظيم ما لا يخفى.

ووصف هذا الطريق بالاستقامة، استبعادا للطرق المعوجة المنهى عنها فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وفيه إشعار بأن رسالة محمد ـ ﷺ ـ طبيعتها الاستقامة، فهى قائمة كحد السيف، لا عوج فيها، ولا انحراف، ولا التواء، ولا ميل، الحق فيها واضح لا غموض فيه، ولا التباس، ولا يميل مع هوى، ولا ينحرف مع مصلحة، يجده من يطلبه فى يسر وفى دقة.

وهى ـ لاستقامتها ـ بسيطة، لا تعقيد فيها ولا لف ولا دوران، لا تعقد الأمور، ولا توقع فى إشكالات من القضايا والتصورات والأشكال الجدلية، وإنما تصدع بالحق فى أبسط صورة من صوره، وأعراها عن الشوائب والأخلاط، وأغناها عن الشرح، وتغصيص العبارات، وتوليد الكلمات، والدخول بالمعانى فى الدروب والمنحنيات!

---

(١) راجع: الكشاف ٣/ ٣١٤، روح المعانى ٢٢/ ٣١٦، التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٤٦، تفسير الفخر الرازى ٢٦/ ٤٣ .

يمكن أن يعيش بها ومعها البادى والحاضر، والأمى والعالم، وساكن الكوخ وساكن العمارة، ويجد فيها كل حاجته، ويدرك منها ما تستقيم به حياته ونظامه، وروابطه فى يسر وفى لين.

وهى مستقيمة مع فطرة الكون وناموس الوجود، وطبيعة الأشياء والأحياء حول الإنسان، فلا تصدم طبائع الأشياء، ولا تكلف الإنسان أن يصدمها، إنما هى مستقيمة على نهجها، متناسقة معها، متعاونة كذلك مع سائر القوانين التى تحكم هذا الوجود وما فيه ومن فيه.

وهى من ثم مستقيمة على الطريق إلى الله، واصلة إليه موصلة به، لا يخشى تابعها أن يضل عن خالقه، ولا أن يلتوى عن الطريق إليه، فهو سالك ضربا مستقيما واصلا، ينتهى به إلى رضوان الخالق العظيم[1].

والقرآن الكريم حاوى الدين، وهو دليل هذا الصراط المستقيم، وحيثما سار الإنسان معه، وجد هذه الاستقامة فى تصويره للحق، وفى التوجيه إليه، وفى أحكامه الفاصلة فى القيم، ووضع كل قيمة فى موضعها الدقيق ؛ لأنه ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

قرأ حمزة والكسائى ولين عامر وحفص بالنصب على المدح ، أو على المصدرية لفعل محذوف، أى نزل الله تعالى القرآن الكريم تنزيل العزيز الرحيم.

وقرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: "هو تنزيل"، وهذا من مواضع حذف المسند إليه الذى أشار إليه علماء البلاغة، وفى مقدمتهم: الإمام عبدالقاهر الجرجانى، والسكاكى[2].

---

(١) انظر: فى ظلال القرآن ٥/ ٢٩٥٨، ٢٩٥٩ .

(٢) راجع: دلائل الإعجاز ١٠٧ تعليق: محمد رشيد رضا، المفتاح صـ ١٧٦ .

و"العزيز": القاهر الذى لا يقهر، و"الرحيم" المحسن إلى عباده، فلا تضيق رحمته بهم.

قال العلامة النسفى: "العزيز: الغالب بفصاحة نظم كتابه أوهام ذوى العناد، الرحيم: الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام أولى الرشاد"(١).

وتخصيص هذين الاسمين الكريمين الدالين على الغلبة التامة، والرأفة العامة، للحث على الإيمان به ترهيبا وترغيبا، وإشعارا بأن تنزيله ناشئ عن غاية الرحمة بعباده، حسبما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وفى تقديم العزيز على الرحيم إشارة إلى أن الرسول ـ ﷺ ـ أرسل إلى قوم يصر أكثرهم على الكفر، لا يحيدون عنه، ولا يريدون الخروج منه، مهما جاءتهم النذر، وهؤلاء من شأنهم أن يقابلوا الرسالة بالتكذيب والإعراض، والمرسل بالاستهزاء والإهانة والإيذاء، وهذا يستدعى من المرسل، وهو القوى القهار ـ الانتقام منهم بالإهلاك والتدمير، ونصر المرسل وتأييده، وحفظ المرسل به من أن تمتد إليه أيديهم بالتبديل والتغيير، أو بالزيادة والنقصان، ولا يملك هذا ولا يقدر عليه، إلا من كان عزيزا لا يغلب ولا يقهر، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وأيضا فإن العزة يناسبها الإنذار والتهديد، والرحمة يناسبها التبشير، والإنذار فى ابتداء دعوة الرسل يقدم على التبشير، لأنه

(١) تفسير النسفى.

المقصود الأهم من البعثة، إذ البشارة لا تكون إلا لمن انتفع بالإنذار، فاتبع القرآن، وأطاع الرحمن، وهذا ما ورد بيانه فى الآيات التالية.

واللام فى قوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ متعلقة "بتنزيل"، أو بفعل مضمر يدل عليه قوله:﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

وعلى كلا الوجهين ، فهى للتعليل، تعليلا لإنزال القرآن، أو لإرسال الرسول بالقرآن.

والإنذار: إخبار فيه تخويف وتحذير، فإذا لم تتسع المدة للتحفظ من الخوف، فهو إعلام وإشعار لا إنذار.

والمنذر: هو المخبر عن توقع حدوث مكروه أو مؤلم، وأكثر ما يستعمل الإنذار فى القرآن فى التخويف من عذاب الله.

و"قوم" اسم جمع لا واحد له من لفظه، والمراد به كفار مكة الذين بعث النبى ــ ﷺ ــ لإنذارهم، وهذا لا يتعارض مع عموم رسالته، إذ المقصود أن النبى ــ ﷺ ــ باشر فى ابتداء بعثته دعوة أهل مكة وما حولها ، فكانوا هم الذين أراد الله أن يتلقوا الدين، وأن تتأصل فيهم جامعة الإسلام، ثم كانوا هم حملة الشريعة، وأعوان الرسول ــ ﷺ ــ فى تبليغ دعوته وتأييده، ثم انضم إليهم أهل يثرب وهم قحطانيون فكانوا أنصارا، ثم تتابع إيمان قبائل العرب.

قال ابن كثير:"وقوله تعالى:﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يعنى بهم العرب، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفى العموم"(١)، ويؤيد هذا ما ورد فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله ــ ﷺ ــ فيما أخرجه البخارى والنسائى عن جابر : "وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤١ .

الناس عامة"، وغير ذلك من الآيات والأحاديث المتواترة فى عموم بعثته ـ ﷺ ـ.

واقتصر على الإنذار، لأن أول ما ابتدئ به القوم من التبليغ إنذارهم جميعا بما تضمنته أول سورة نزلت من قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ وما تضمنته سورة المدثر، لأن القوم جميعا كانوا فى غفلة عن معرفة الحق والنور والشرائع، فكان حالهم يقتضى الإنذار ليسرعوا عن الإقلاع عما هم فيه من الجهالة والغواية، والضلال المبين[1].

و"ما" فى قوله ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ يجوز أن تكون نافية، وعليه فيكون المراد بآبائهم آباؤهم الأقربون من قريش، لأن قريشا لم يبعث فيها رسول قبل محمد ـ ﷺ ـ، ويجوز أن تكون مصدرية وعليه يكون المراد بآبائهم أسلافهم الأبعدون من الأمم السابقة، قبل قريش، ويكون المعنى: لتنذر قوما إنذارا مثل إنذار آبائهم، ممن كانوا فى زمان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

والرأى الأول هو ما عليه أكثر أهل التفسير[2]، وهو الأولى بالقبول؛ لأن هؤلاء القوم الذين قد طال عليهم الأمد، ولم يأتهم منذر منذ وقت طويل، فكانوا لأجل ذلك فى غفلة، هم الذين يحتاجون إلى الإيقاظ والتنبيه، والتحذير والتخويف، لأن الغفلة أشد ما يفسد القلوب.

أما آباؤهم الأبعدون فقد حصل لهم الإنذار على يد الرسل السابقين، كما سبق أن وضحنا.

وقد ورد فى القرآن الكريم كثير من الآيات تؤيد هذا وتؤكده، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤]،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٤٨ بتصرف.
(٢) راجع: تفسير القرطبى ١٥/ ١٠، تفسير الطبرى ٢٢/ ١٥٠.

وقولـــه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصـــص: ٤٦، السجدة: ٣].

والفاء فى قوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لترتيـب الغفلـة علـى نفـى الإنذار، والضمير للفريقين، أى لم ينذر آباؤهم، فهم جميعا لأجل ذلك غافلون، والتعبير عنهم باسم الفاعل يفيد أن الغفلة أصـبحت صـفة ثابتة فيهم لتراكم الجهل والضلالات فيهم عاما فعاما، وجيلا فجيلا.

والغفلة: صريحها الذهول عن شئ وعدم تذكره، بسـبب قلـة التحفظ والتيقظ، وهى هنا كناية عن الإهمال والإعراض عمـا يحـق التنبيه إليه، وهذا على قول من قال: إن العرب قد بلغهم خبر الأنبياء، ولكنهم غفلوا وأعرضوا ونسوا؛ لأن الدعاء إلى الله لم ينقطع عن كل أمة إما بمباشرة من أنبيائهم، وإما بنقل إلى وقت بعثة نبينا ـ ﷺ ـ والآيات التى تدل على أن قريشا ما جاءهم تـؤول علـى أنهـم لـم يباشرهم بالإنذار، ولا آباءهم القريبين رسول من أنفسهم، لا أنه لـم ينذرهم منذر أصلا، فيجوز أن يكون قد أنذرهم من ليس بنبى كزيـد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة[1].

ثم بين الحق ـ سبحانه ـ مصير هؤلاء الغافلين الذين سـبق فى علم الله أنهم يموتون على الكفر، ويصرون عليه طـول حيـاتهم فقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والجملة جواب لقسم محذوف، والتقدير: والله لقد ثبت ووجب.

والمراد بالقول: الحكم والقضاء الأزلى، وهو سبق علـم الله بنهايتهم، لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكـون مـن قـبلهم مـا يقتضيه، بل بسبب إصرارهم الاختيارى على الكفر والإنكار، وفى هذا تسلية وتطمين للنبى ـ ﷺ ـ حتى لا يجزع ولا يأسف علـى عـدم إيمانهم به.

(١) راجع: روح المعانى ٢٢/ ٣١٨، القرطبى ١٥/ ١٠.

والجمهور على أن المراد به قوله تعالى لإبليس ـ لعنه الله ـ ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٥] .

وهو المعنى بقوله: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

والتعبير بالأكثرية يفيد أن قلة منهم اتبعت الحق، وآمنت به، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾[يونس:٩٦،٩٧] .

والفاء فى قوله: ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لتفريع انتفاء إيمان أكثرهم على القول الذى حق على أكثرهم .

والمراد بهم أهل مكة ممن أصروا على الكفر، واستمروا عليه حتى الموت، كأبى جهل ومن كان على شاكلته من كفار العرب، أو الكفار مطلقا، فإن الواقع يشهد بأن الكفار أكثر عددا من المؤمنين، وهذه سنة الله فى ملكه، قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام:١١٦] .

ثم ضرب الله تعالى مثلا لتصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى إيمانهم فقال:﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ هذه الجملة بدل اشتمال من جملة ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فإن انتفاء إيمانهم يشتمل على ما تضمنته هذه الآية من جعل أغلال فى أعناقهم حقيقة أو تمثيلا .

والأغلال: جمع غل بالضم، وهو ما يجمع به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد ، وذكر أبوحيان أن الغل ما أحاط بالعنق على معنى التعنيف والتضييق، والتعذيب والأسر، ومع العنق اليدان أو اليد الواحدة[1].

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٢٤ .

وذكر الراغب أن الغل مختص بما قيد به، فيجعل الأعضاء وسطه، وجمعه أغلال، وأصله من الغلل الذى هو تدرع الشئ وتوسطه، ومنه الغلل للماء الجارى بين الشجر[1].

وذكر صاحب التحرير والتنوير كلاما عن الغل يجمع كل ما سبق، ويزيد عليه، وذلك حيث يقول: هو حلقة عريضة من حديد كالقلادة ذات أضلاع من إحدى جهاتها، وطرفين يقابلان أضلاعهما، فيهما أثقاب متوازية تشد الحلقة من طرفيها، على رقبة المغلول بعمود من حديد له رأس كالكرة الصغيرة، يسقط ذلك العمود فى الأثقاب، فإذا انتهى إلى رأسه الذى كالكرة استقر ليمنع الغل من الانحلال والتفلت[2].

والأذقان: جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين.

والمقمح: الذى يرفع رأسه، ويغض بصره، يقال: قمح البعير قموحا، إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب.

والآية تشبه حالة الكفار فى تصميمهم على الكفر، وإعراضهم عن التدبر فى القرآن ، ودعوة الإسلام، وعدم التفاتهم إلى الحق، بحال قوم غلت أعناقهم بأغلال غليظة، تصل إلى أذقانهم، فهم من جراء ذلك مقمحون، أى رافعون رؤوسهم، غاضون أبصارهم، لا يلتفتون يمينا ولا شمالا، ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية، وهم على تلك الحال، ويكون هذا من قبيل الاستعارة التمثيلية على حسب مصطلحات البلاغيين.

والمراد منعناهم ــ بما لنا من العظمة ــ بموانع عن الإيمان تشبه ما ذكر، فهم غاضوا أبصارهم، لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يذعنون برؤوسهم إليه.

---

(١) المفردات ٣٧٥ .

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٥٠ .

وإدخال حرف الجر على الأعناق فى قوله: ﴿ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ ﴾ يشير إلى أن الأغلال من ضيقها لزت اللحم حتى تثنى على الحديد، فكاد يغطيه، فصار ــ والعنق فيه ــ كأنه فيها، وهى محيطة به.

والتنوين فى الأغلال للتعظيم والتهويل، أى: أغلالا عظيمة هائلة غليظة تملأ ما بين الصدر والذقن، وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة يؤيد ذلك.

واكتفى هنا بذكر الأعناق عن الأيدى بخلاف آية الإسراء: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ لأن آية الإسراء قصد بها التحذير من البخل والإمساك والحث على الإنفاق، وذكر اليد يناسب الإنفاق، إذ الإنفاق والعطاء يكون بها.

أما هنا فذكر الأعناق هو المهم، لأن المقصود تصوير حالتهم، وهم رافعوا رؤوسهم عن النظر إلى داعى الحق تكبرا وشماخة، وصلافة وتيها، وإعراضهم عن التأمل والإنصاف، وهذا يظهر فى الأعناق أكثر، وبخاصة عندما توضع فى الأغلال على الصورة والهيئة المشار إليها آنفا.

ثم أكد الحق ــ سبحانه ــ ما سبق من الإصرار على الكفر، وزاده بيانا وتفصيلا فقال: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ السد: بفتح السين وضمها: الحاجز والمانع.

ومعنى أغشيناهم: أى غطينا أبصارهم، وجعلنا عليها غشاوة.

والمعنى: أننا لم نكتف بما ذكر، بل أضفنا إلى ذلك أننا جعلنا من أمامهم سدا عظيما، ومن خلفهم سدا كذلك، فغطينا بهما أبصارهم، فهم بسبب ذلك، لا يقدرون على إبصار شئ ما بسبب احتجاب الرؤية عنهم.

والآية الكريمة على هذا من تمام الصورة السابقة التى جعل الله المشركين عليها، من كونهم محرومين من الاهتداء، فهم على

وضعهم السابق لا يستطيعون التفاتا، يمينا أو شمالا، ولكنهم مع ذلك يستطيعون أن يروا ما أمامهم، ويستديروا ليروا ما خلفهم، فجاءت هذه الآية لتصورهم، وقد سدت عليهم الطرق والمنافذ من جميع الجهات، وأحاطت بهم الحواجز من كل جانب، فأغلقت عليهم منافذ النظر إلى العالم الخارجي، وصاروا محصورين في عالمهم الذي لا شئ فيه غير الضلال والظلام.

والمراد: بيان فظاعة حالهم، وكونهم محبوسين في مطمورة الغي والجهالات، محرومين من النظر في الأدلة والآيات، وهذا كله تمثيل لسد طرق الإيمان عليهم، بمن سدت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده[1].

وفي التفسير الكبير: مانع الإيمان: إما أن يكون في النفس، وإما أن يكون خارجا عنها، ولهم المانعان جميعا، أما في النفس فالغل الذي يجعل صاحبه، لا يرى نفسه ولا يقع بصره على بدنه، وأما من الخارج فالسد لأن المحاط بالسد لا يقع نظره على الآفاق، فلا تتبين له الآيات التي في الآفاق، كما أن المقمح لا تتبين له الآيات التي في الأنفس، فمن ابتلي بهما حرم من النظر بالكلية، لأن الدلائل والآيات مع كثرتها منحصرة فيهما، كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[2].

وهذه الصورة إعجاز من إعجاز القرآن في تجسيد المعاني، وفي بعث الحياة والحركة في الجمادات والساكنات، حيث نرى الكافر هنا وقد أدخل في سجن محكم، مطبق عليه، لا يرى منه النور أبدا[3].

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٩، حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣١٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٤٢ بتصرف.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن ٦/ ٩١٠.

وقد ذكروا فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات، منها ما أخرجه أبونعيم فى الدلائل عن ابن عباس ـ ﷺ ـ قال: كان النبى ـ ﷺ ـ يقرأ فى المسجد فيجهر بالقراءة، حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم، وإذا هم عمى لا يبصرون، فجاءوا إلى النبى ـ ﷺ ـ فقالوا: ننشدك الله والرحم يا محمد، فدعا حتى ذهب ذلك عنهم، فنزلت: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: فلم يؤمن من ذلك النفر أحد.

وروى أن قريشا اجتمعت بباب النبى ـ ﷺ ـ ينتظرون خروجه ليؤذوه، فشق ذلك عليه، فأتاه جبريل بسورة "يس" وأمره بالخروج عليهم، فأخذ كفا من تراب، وخرج وهو يقرؤها، ويذر التراب على رؤوسهم، فما رأوه حتى جاز، فجعل أحدهم يلمس رأسه، فيجد التراب، فينفض ما على رأسه منه، وذهب النبى ـ ﷺ ـ لحاجته[1].

وروى أن الآيتين نزلتا فى بنى مخزوم، وذلك أن أبا جهل حمل حجرا لينال بها ما يريد برسول الله ـ ﷺ ـ وهو يصلى، فأثبتت يده إلى عنقه حتى عاد إلى أصحابه والحجر قد لزق بيده، فما فكوه إلا بجهد، فأخذه مخزومى آخر، فلما دنا من الرسول ـ ﷺ ـ طمس الله تعالى بصره، فعاد إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه، فقام ثالث فقال: لأشدخن أنا رأسه، ثم أخذ الحجر وانطلق فرجع القهقرى ينكص على عقبيه، حتى خر على قفاه مغشيا عليه، فقيل له: ما شأنك؟ قال: عظيم، رأيت الرجل، فلما دنوت منه، فإذا فحل، ما رأيت فحلا أعظم منه حال بينى وبينه، فواللات والعزى لو دنوت منه لأكلنى[2].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤٢ .
(٢) انظر: روح المعانى ٢٢/ ٣٢٣ .

وهذا ما جعل البعض يحكم بأن ما ورد فى الآيتين إنما هو على سبيل الحقيقة، فالأغلال حسية، والسدود حقيقية، والذى تميل إليه النفس أن ما ورد فى الآيتين إنما هو على سبيل التمثيل، بدليل ما ورد فى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ويجوز أن يكون إخبارا بما أعدلهم فى الآخرة من أغلال وسدود، حين يساقون إلى جهنم مكبلين بالأغلال والسلاسل، كما أشار إلى قوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢] .

وعليه يكون فعل "جعلنا" مستقبلا، وعبر عنه بصيغة الماضى لتحقيق وقوعه، نظير قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١] .

وقوله تعالى: ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ تفريع على المثلين السابقين؛ لأن فى كلا المثلين مانعا من أحوال النظر .

وفى الكلام اكتفاء عن ذكر ما يتفرع ثانيا على تمثيلهم، بمن جعلوا بين سدين من عدم استطاعة التحول عما هم فيه، واكتفى بما ذكر، لأن المقصود الأهم من المثلين هو حرمانهم من الاهتداء والتوفيق، وهو يتحقق بما ذكر .

وفى هذا القول الكريم إشارة إلى ما يقع لهؤلاء المشركين من هذه الآيات التى سلطها الله عليهم، من الأغلال والسدود، فلقد أقامت هذه الآفات غشاوة على عيونهم، فهم لا يبصرون، وكيف يبصر من عاش فى هذه الحدود التى لا تتجاوز محيط جسده، وماذا يبصر لو كان له أن يبصر؟!!

ولما منعوا من حس البصر، أتبع ذلك بالإخبار عن حس السمع، فقال: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

و"سواء" اسم مصدر بمعنى الاستواء، والمراد به اسم الفاعل، أى ومستو عندهم ومعتدل غاية الاعتدال من غير نوع فرق إنذارك إياهم وعدمه، والكلام استئناف مؤكد لما قبله، أى من أضله الله هذا الضلال لم ينفعه الإنذار، فهم ـ لسوء استعدادهم ، وخبث نفوسهم ـ لا يؤمنون، لأنهم قد اختاروا العمى على الهدى، وقد جرت سنة الله بأنه لا يوفق إلى الهدى من كان كذلك، عقوبة له، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] وقال: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٧].

وفى التعبير بـ"على" فى قوله : "عليهم" المفيدة للاستعلاء المجازى، دلالة على أن قلة إدراكهم، وقوة عنادهم، تؤذن وتشير إلى أنهم إذ امتنعوا مع المستعلى كانوا مع غيره أشد امتناعا[1].

وهذا هو المصير الأخير للأكثرين، فإن نفوسهم محجوبة عن الهوى، مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها.

ومع فظاعة حال هؤلاء، وشناعة ما وصلوا إليه، من خزى وعار، وحيرة وضلال، وما انحدروا إليه من الهوة العميقة، التى لا يستطيعون معها الوصول إلى غاياتهم الدنيئة، التى خططوا لها فى عالم الظلام، "فإن الإنسان ـ للأسف ـ ليلتقى بأناس من هذا النوع، يخيل إليه وهم لا يرون الحق الواضح ولا يدركونه أن هنالك حائلا عنيفا كهذا بينهم وبينه، وأنه إذا لم تكن الأغلال فى الأيدى، وإذا لم تكن الرؤوس مقمحة ومجبرة على الارتفاع، فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك، مشدودة عن الهدى قسرا، وملفوتة عن الحق لفتا، وبينها وبين دلائل الهدى سد من هنا وسد من هناك، وكذلك كان هؤلاء الذين واجهوا هذا القرآن بمثل ذلك الإنكار والجحود، وهو يصدع

(١) مستفاد من نظم الدرر ١٦/ ٩٨ .

بالحجة، ويدلى بالبرهان، وهو بذاته حجة ذات سلطان لا يتماسك لها إنسان"[1].

ولما أخبر أن الأكثر بهذه الصفة، استشرف السامع إلى أمارة يعرف بها الأقل الناجى، لأنه المقصود بالذات ، فقال جوابا له: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾.

والذكر هنا يراد به القرآن، على الأرجح، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

ووجه تسمية القرآن بهذا، إما لأنه ذكر من الله تعالى، ذكر به عباده، وعرفهم به فرائضه وحدوده، وإما لأنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به، وصدق بما جاء فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ ﴾[2] .

والإتباع: حقيقته الاقتفاء والسير وراء سائر، وهو هنا مستعار للإقبال على الشئ، والعناية به، لأن المتبع شيئا يعتنى باقتفائه، فاتباع الذكر تصديقه والإيمان بما فيه؛ لأن التدبر فيه يفضى إلى العمل به، كما ورد فى قصة إيمان عمر بن الخطاب ــ ﷺ ــ فإنه وجد لوحا فيه سورة طه عند أخته، فأخذ يقرأ ويتدبر فآمن .

ولما كان الإقبال على سماع القرآن مفضيا إلى الإيمان بما فيه؛ لأنه يداخل القلب، كما قال الوليد بن المغيرة : "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق" أتبعت صلة "اتبع الذكر" بجملة: "وخشى الرحمان بالغيب"، فكان المراد من اتباع الذكر أكمل أنواعه الذى لا يعقبه إعراض، فهو مؤد إلى امتثال المتبعين ما يدعوهم إليه .

(١) فى ظلال القرآن ٥/ ٢٩٦٠ .
(٢) راجع: النكت والعيون تفسير الماوردى ١/ ٢٤ .

وخشية الرحمان: تقواه والخوف من عقابه، والكف عن المعاصى طلبا لمرضاته، مع أنهم لم يروه، وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

وفى التعبير بوصف "الرحمن" دون اسم الجلالة وجهان:

أحدهما: أن المشركين كانوا ينكرون اسم الرحمان، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

والثانى: الإشارة إلى أنها خشية إجلال وتعظيم وحب وتوقير، لا خشية جبروت وقهر، إنها خشية الرحمن الذى وسعت رحمته كل شئ.

والقصر المستفاد من "إنما" قصر قلب ، لأن المقصود منه التنبيه على أن لا يظن النبى ـ ﷺ ـ انتفاع الذين لا يؤمنون بنذارته، ويجوز أن يكون قصرا حقيقيا مجازيا على اعتبار أن الذين ينتفعون بالإنذار، هو هذا الصنف من الناس، فكأنه هو وحده الذى وجه إليه الإنذار، مع أن الإنذار قد عم الناس كلهم ، إلا أنه لما كان إنذار غيرهم كلا إنذار فى انتفاء فائدته، جعله مقصورا عليهم وحدهم، ونزل إنذار غيرهم منزلة عدم الإنذار.

وفى قصر الإنذار على هؤلاء المنذرين إشارة إلى الاستعداد الفطرى للإيمان عند هذا الصنف من الناس، وأنهم بفطرتهم السليمة كانوا والإيمان الذى يدعون إليه على موعد، بل إنهم فى انتظار له، وشوق إليه قبل أن يطلع عليهم.

ووصف المنتفعين بالإنذار بهذين الوصفين: اتباع القرآن، والخوف من الله مع الرجاء فى رحمته، يفيد أن هذين الأمرين هما بداية السير فى الطريق المستقيم الموصل إلى رضوان الله، وبداية قبول الموعظة والتذكير، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولما كان هذا النوع من الناس، هو الذى نفع نفسه كما يشير السياق، تشوف السامع إلى معرفة جزائه، فقال سبحانه: ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ لذنوبه ، وإن عظمت، وإن تكررت موافقته لها، وتوبته منها، فإن ذلك لا يمنع الاتصاف بالخشية ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى وثواب حسن عظيم، مرضى لأعماله الصالحة، وهو الجنة .

وجمع ــ سبحانه ــ بين المغفرة والأجر الكريم، لعباده الجامعين بين اتباع ذكره وخشيته، لأن التأمل فى القرآن يؤدى إلى الإيمان المؤدى إلى المغفرة، لأن الله تعالى ، يغفر ما دون الشرك لمن يشاء، والخشية تؤدى إلى الحسنات المؤدية إلى الأجر الكريم، لأنه تعالى قال: ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وفى الجمع بين "تنذر" و"بشر" طباق فائدته بيان أن من انتفع بالإنذار كان جديرا بالتبشير .

ثم ذكر تعالى ما يثير الخشية منه، ويبعث عليها، وهو إحياء الموتى من قبولهم لحسابهم على ما قدموا من أعمال، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ .

أى بما لنا من العظمة التى لا تضاهى ، نحن الأموات جميعا، ونعيدهم إلى الحياة مرة أخرى، لكى نحاسبهم على أعمالهم التى قدموها فى الدنيا، وعلى آثارهم التى خلفوها وراءهم بعد موتهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر .

وجاء هذا التركيب مؤكدا بأكثر من مؤكد، للرد على إنكار الكفرة، فإن الكفرة كانوا يقولون: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

(١) انظر: تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٣/ ٣٠٢ .

والمراد بكتابة ما قدموا، الكناية عن مجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة التى قدموها فى الدنيا.

ومعنى نكتب: أى نحصى ونسجل عليهم ما عملوه فى الدنيا من خير وشر، فعبر عن إحاطة علمه بأعمالهم بالكتابة التى تضبط بها الأشياء، على طريق الكناية.

وإنما قدم إحياء الموتى على كتابة الأعمال، مع أنها سابقة عليه، لأن الكتابة ليست مقصودة لذاتها، وإنما المقصود الأصلى هو الإحياء للجزاء، ولولا الإحياء والإعادة لما ظهر للكتابة فائدة أصلا، وأيضا قوله: "إنا نحن" دال على العظمة والجبروت، والإحياء أمر عظيم، لا يقدر عليه أحد إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بخلاف الكتابة، فقدم الأمر العظيم ليناسب اللفظ الدال على العظمة[1].

والمراد بالآثار: ما تركوه وهلكوا عنه من أثر حسن، كعلم علموه، أو كتاب صنفوه، أو وقف وقفوه، أو بناء فى سبيل الله تعالى بنوه، وغير ذلك من وجوه البر، أو من أثر سئ، كتأسيس قوانين الظلم والعدوان، وترتيب مبادئ الشر والفساد، فيما بين العباد، وغير ذلك من فنون الشر التى أحدثوها، وسنوها بعدهم للمفسدين، وهذا كقوله ـ ﷺ ـ فيما رواه مسلم عن جرير بن عبدالله البجلى: "من سن فى الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا[2].

وقال بعض المفسرين: هى آثار المشائين إلى المساجد، ولعل المراد أنها من جملة الآثار، روى مسلم والإمام أحمد عن جابر بن

(١) انظر: غرائب القرآن ٥/ ٥٢٧ .
(٢) راجع: صحيح مسلم كتاب العلم ٢/ ٤٦٥ .

عبدالله قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فقال لهم : إنه بلغنى إنكم تريدون أن تنتقلوا إلى المسجد، قالوا: نعم يا رسول الله ، قد أردنا ذلك، فقال: يا بنى سلمة: دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم"[1].

وهذا لا يقتضى أن تكون الآية مدنية ـ كما قيل ـ لأن النبى ـ ﷺ ـ قرأ لهم هذه الآية على سبيل الاستشهاد والاحتجاج، ولم يذكر أنها نزلت فيهم، وقراءته ـ ﷺ ـ لا تنافى تقدم النزول، وعلى هذا فالآية مكية كبقية السورة[2].

ثم ذكر تعالى أن كتابة الآثار لا تقتصر على الناس، وإنما تتناول جميع الأشياء، فقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

"كل" منصوب بفعل مضمر يفسره المذكور، والإمام: الكتاب المقتدى به الذى هو حجة ، والمراد به هنا: اللوح المحفوظ الذى سجل فيه جميع ما يتعلق بالكائنات، كما قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣] .

وسمى إماما: لأنه يؤتم به، ويتبع ولا يخالف .

والإحصاء: حقيقته العد والحساب، وهو هنا كناية عن الإحاطة والضبط، وعدم تخلف شئ عن الذكر والتعيين، وفيه ترغيب وترهيب، لأن المحصى عليه لم يصح منه الغفلة فى حال من

(١) راجع: صحيح مسلم كتاب المساجد ١/ ٤٦٢، ومسند الإمام أحمد ٣/٣٣٣ .

(٢) مستفاد من: ابن كثير ٣/ ٥٤٣، روح المعانى ٢٢/ ٣٢٦ .

الأحوال، بل ينبغى عليه أن يراقب نفسه فى كل وقت ونفس وحركة وسكون .

ومعنى "مبين" موضح ومظهر لجميع الأشياء مما كان وما سيكون ، ووصف بذلك لبيان أنه لا يمحى أثره.

ومجئ هذه الجملة عقب ما سبق بيانه من كتابة الأعمال والآثار من قبيل التعميم بعد التخصيص، كأنه قال: ليست الكتابة مختصة بأفعالهم، وإنما هى لكل شئ، وفيه من الترغيب والترهيب ما لا يخفى.

قصة أصحاب القرية

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [١٣ ـ ٣٢].

بعد عرض موقف أهل الكفر والعناد، وموقف من انتفع بالإنذار فاتبع القرآن وخشى عذاب الله وناره قبل المعاينة والمشاهدة، عاد السياق لعرضها فى صورة قصصية، تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان وعواقبهما معروضة كالعيان، لأن ضرب الأمثال والمشاهدات ألصق شئ بالبال، وأقطع للمراء والجدال، وأكشف لما يراد من الأحوال، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

المثل فى اللغة: الشبيه، وضرب المثل يستعمل تارة فى تشبيه حالة غريبة بأخرى مثلها، كما فى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠]، ويستعمل تارة أخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بحالة أخرى مناظرة لها، كما فى قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

والمعنى على الأول: اجعل أصحاب القرية مثلا لهؤلاء فى الغلو فى الكفر والإصرار على تكذيب ارسل، أى طبق حالهم بحالهم، على أن مثلا مفعول ثان لضرب ، وأصحاب القرية مفعوله الأول، أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه، وعلى الثانى: اذكر وبين لهم قصة هى فى الغرابة كالمثل(١).

وضرب المثل: سوقه وذكره وإيراده، وعبر عن ذلك بالضرب، نظرا لما يحدثه المثل فى نفس السامع من تأثير شديد وقوى، لا يكاد ينسى ، ومن هنا أطبق العلماء على علو بلاغة ضرب الأمثال، وروعتها فى تصوير المعانى ، وإبرازها فى صورة واضحة جلية.

قال ابن المقفع: إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للنطق، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث .

وقال الأصبهانى: وفى ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة، وقمع لسورة الجامح الأبى، فإنه يؤثر فى القلوب ما لا يؤثر وصف الشئ فى نفسه، ولذلك أكثر الله تعالى فى كتابه وفى سائر كتبه الأمثال، ومن سور الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال، وفشت فى كلام النبى ــ ﷺ ــ وفى كلام الأنبياء والحكماء(٢).

---

(١) انظر: الفتوحات الإلهية ٦/ ٢٧٩ .

(٢) راجع هذا فى كتاب: "نظرات فى التمثيل البلاغى" صـ١٣ .

وقد اختلف المفسرون فى تحديد المراد بـ"القرية" والمراد بالرسل على أقوال كثيرة، أشهرها أن المراد بالقرية "أنطاكية" وأن هؤلاء الرسل الثلاثة هم من حواريى المسيح ورسله الذين بعثهم لينشروا الدعوة فى الناس[1].

ومع أن هذا القول هو أشهر الأقوال إلا أننا لا نسلم به أيضا، لأنه لا يقوم له شاهد من القرآن الكريم، ولا تدل عليه إشارة من إشاراته القريبة أو البعيدة، وإنما هو من واردات أهل الكتاب، فهو ينسب إلى كعب الأحبار ووهب بن منبه، وهما لا يعتمد عليهما؛ لأنهما قد أكثرا من ذكر الإسرائيليات فى القرآن، والقرآن الكريم ـ كما ذكر أهل التحقيق ـ يفسر بعضه بعضا.

والذى تطمئن إليه النفس، وعليه التعويل، هو أن القرية واحدة من القرى المبثوثة فى هذه الدنيا، وأن الرسل هم بعض رسل الله إلى عباده.

ولم يفصح القرآن عن اسم القرية، ولا عن أصحابها لأن اهتمامه فى هذه القصة وأمثالها منصرف إلى العبر والعظات التى تؤخذ منها، ولو كان فى تعيينها فائدة لعينها الله تعالى وما تركها مبهمة، ومن ثم أغفل التحديد ، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها .

فهى قرية أرسل الله إليها رسولين، فكذبهما أهل تلك القرية، فأمدهما الله برسول ثالث يقويهما، ويشد أزرهما ، فلم يزدهم ذلك إلا عنادا وإصرارا على الكفر والضلال.

و"لهم" متعلق بـ"اضرب" أى اضرب مثلا لأجلهم، بشارة بما يرجى لهم عند إقبالهم، ونذارة لما يخشى عليهم عند إعراضهم وإدبارهم.

---

(١) راجع هذه الأقوال ـ إن شئت ـ فى تفسير القرطبى ١٥/ ١٤، تفسر ابن كثير ٣/ ٥٤٤، وغيرها من كتب التفاسير.

و"إذ" فى قوله: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، وهو بدل اشتمال من أصحاب القرية.

ولما كان أعظم مقاصد السياق تسلية النبى ـ ﷺ ـ فى توقفهم عن المبادرة إلى الإيمان به، مع دعائه بالكتاب الحكيم إلى الصراط المستقيم، وكان فى المشاركة فى المصائب أعظم تسلية، قال مفصلا وموضحا المجمل السابق، ومبينا لكيفية الإرسال، ولموقف أهل القرية ممن جاءوا لهدايتهم وإرشادهم إلى الدين الحق: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾.

أى: إن موقف المشركين منك ـ أيها الرسول الكريم ـ يشبه موقف أصحاب القرية من الرسل الذين أرسلناهم لهدايتهم، إذ أرسلنا إلى أصحاب هذه القرية اثنين من رسلنا، فكذبوهما، وأعرضوا عن دعوتهما.

والحكمة فى إرسال الاثنين فى أول الأمر ليعضد أحدهما الآخر، فيكون أشد لأمرهما. كما أرسل موسى وأخاه هارون ـ عليهما السلام ـ إلى فرعون وملئه.

والفاء فى قوله "فكذبوهما" فاء الفصيحة؛ لأنها تفصح عن فعل محذوف، والتقدير: أرسلنا إليهم اثنين لدعوتهم إلى إخلاص العبادة لنا فذهبا إليهم فكذبوهما.

والتعزيز: التقوية، ومنه قولهم: تعزز لحم الناقة إذا صلب، وعزز الأرض المطر، إذا قواها وشدها، ويقال للأرض الصلبة العزاز.

ومفعول "عززنا" محذوف، لدلالة ما قبله عليه، ولأن المقصود ذكر المعزز به[1]، وإظهار الاقتدار على إيقاع الفعل وتصريفه فى كل ما أريد له، والتقدير: فعززناهما برسول ثالث.

---

(١) انظر: روح المعانى ٢٢/ ٣٣٠.

وفى إرسال الثالث لتعزيز وتقوية الرسولين السابقين فى أداء الرسالة إشارة إلى أن أهل الحق كلما ازداد عددهم ازدادت قوتهم، وعزز بعضهم بعضا.

والتعبير بـ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾ دون أرسلنا إليها ليطابق إذ جاءها، لأن الإرسال حقيقة إنما يكون إليهم لا إليها، بخلاف المجئ.

وإسناد الإرسال إلى نون العظمة، وكذا التعزيز يرجح أنه تعالى هو المرسل لا غيره.

وبعد أن تم تعزيز الرسولين اللذين أرسلا فى أول الأمر برسول ثالث، تقدموا ثلاثتهم بدعواهم إلى أهل القرية ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أى: قال الرسل الثلاثة لأصحاب القرية، بعد أن أتوهم وظهر لهم إصرارهم على التكذيب، مؤكدين بحسب ما رأوا من تكذيبهم "إنا إليكم" لا إلى غيركم "مرسلون" من ربكم الذى خلقكم، يأمركم بأن تعبدوه وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة الأصنام.

هنا اعترض عليهم أهل القرية بالاعتراضات المكرورة فى تاريخ الرسل والرسالات ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

أى أنتم مقصورون على البشرية، وليس لكم وصف الرسالة التى تدعونها، فلا فضل لكم علينا، ولا مزية تقتضى اختصاصكم بالرسالة دوننا، ولو أرسل الرحمن إلى البشر رسلا لجعلهم من جنس أفضل منهم، وهم الملائكة على زعمهم، والله الرحمن لم ينزل عليكم أى شئ مما تدعونه، ويدعيه غيركم من الرسل وأتباعهم، فكيف صرتم علينا رسلا؟ وكيف يجب علينا طاعتكم؟ ما أنتم إلا تفترون الكذب فيما تدعونه من الرسالة.

وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر عنهم القرآن الكريم فى كثير من المواضع، منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].

وقولـــه: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ [إبراهيم: ١٠، ١١].

وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول، فقد كانوا يتوقعون دائما أن يكون هناك سر غامض فى شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير ... أليس رسول السماء إلى الأرض، فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير؟ كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها؟! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التى تمتلئ بها الأسواق والبيوت؟!

وهذه هى سذاجة التصور والتفكير، فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة، وليست فى هذه الصورة الساذجة الطفولية، وإن هنالك لسرا هائلا ضخما، ولكنه يتمثل فى الحقيقة الواقعة البسيطة، حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللدنى الذى يتلقى به وحى السماء حين يختاره الله لتلقى هذا الوحى العجيب، وهو أعجب من أن يكون الرسول ملكا كما كانوا يقترحون!

والرسالة منهج إلهى تعيشه البشرية، وحياة الرسول هى النموذج الواقعى للحياة وفق ذلك المنهج الإلهى، النموذج الذى يدعو قومه إلى الاقتداء به، وهم بشر، فلابد أن يكون رسولهم من البشر. ليحقق نموذجا من الحياة، يملكون هم أن يقلدوه.

ومن ثم كانت حياة الرسول ــ ﷺ ــ معروضة لأنظار أمته، وسجل القرآن ــ كتاب الله الثابت ــ المعالم الرئيسية فى هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها وأحداثها، بوصفها تلك الصفحة المعروضة لأنظار أمته على مدار السنين والقرون، ومن هذه التفصيلات حياته المنزلية والشخصية.

حتى خطرات قلبه، سجلها القرآن فى بعض الأحيان لتطلع عليها الأجيال، وترى فيها قلب ذلك النبى الإنسان.

ولكن هذه الحقيقة الواضحة القريبة هى التى ظلت موضع الاعتراض من بنى الإنسان! (١).

وجاء القوم فى خطاب الرسل بالنفى والاستثناء دون "إنما"، مع أن الرسل غير منكرين لبشريتهم تنزيلا للرسل منزلة المنكر، وهذا جار على زعمهم أن البشرية تنافى الرسالة.

وفى قولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ دليل على أنهم يعترفون بوجود الله، لكنهم ينكرون الرسالة، ويتوسلون بالأصنام.

والحكمة فى تخصيص هذا الاسم الجليل "الرحمن" من بين أسمائه ـ عزوجل ـ لاعتقادهم أن عموم رحمته ـ تعالى ـ مع استوائهم مع الرسل فى عبوديته تقتضى أن يسوى بين الجميع فى الرحمة، فلا يخص الرسل بشئ دونهم(٢).

وفى ثقة المطمئن إلى صدقه، العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أى: قالوا لهم بثقة وأدب: ربنا ـ وحده ـ يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبنا عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار؟

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

و﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ قسم، لأنه استشهاد بالله على صدق مقالتهم، وهو يمين قديمة انتقلها العرب فى الجاهلية فقال الحارث بن عباد:

لم أكن من جناتها علم الله ∴ وإنى لحرها اليوم صالى

---

(١) فى ظلال القرآن ٥/ ٢٩٦١.

(٢) مستفاد من نظم الدرر ١٦/ ١٠٦.

ويظهر أنه كان مغلظا عندهم لقلة وروده فى كلامهم، ولا يكاد يقع إلا فى مقام مهم، وهو عند علماء المسلمين يمين كسائر الأيمان، فيها كفارة عند الحنث[1].

ومن الملاحظ أن الرسل هنا أكدوا الخبر بالقسم، وإن واسمية الجملة، ولام الابتداء، وأكدوا الخبر السابق بمؤكدين فقط، "إن" واسمية الجملة، وهذا جار على ما قرره علماء البلاغة من القول بأنه ينبغى توكيد الكلام على حسب درجة إنكار المخاطب، فكلما اشتد إنكاره زيد له فى التوكيد، ولذا فإن الرسل حين أحسوا إنكار أهل القرية فى المرة الأولى اكتفوا بتأكيد الخبر بمؤكدين فقالوا: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾، فلما تزايد إنكارهم وجحودهم قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ فأكدوا الخبر ــ كما ترى ــ بأربعة مؤكدات.

وهذا الموضع من المواضع التى استشهد بها البلاغيون على أضرب الخبر، وجعلوا الخبر الأول من قبيل الضرب الطلبى، والخبر الثانى من قبيل الضرب الإنكارى[2].

وأما قولهم: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ فهو تحديد للوظيفة التى أرسلهم الله تعالى من أجلها، وهى التبليغ الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة بصحته، فإذا استجبتم كانت لكم سعادة الدارين، وإن لم تجيبوا فستعلمون عاقبة جحودكم وعصيانكم، وقصدوا بهذا إعلام القوم بأنهم لا منفعة تتجر لهم من إيمانهم، وإعلان لهم بالتبرؤ من تبعة بقائهم على الشرك، وذلك من شأنه أن يثير النظر الفكرى فى نفوس القوم، وفيه تسلية لأنفسهم بأنهم أدوا ما عليهم ولم يبق إلا التفكر من القوم والتنكر، وتعريض بالمشركين بأن إنكارهم للحق

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٦١ .
(٢) راجع المفتاح صـ ١٧١، والإيضاح فى علوم البلاغة ١/ ٧٠ .

ليس لخفاء حاله وصحته، بل هو مبنى على محض العناد والحمية الجاهلية.

ولما غلبتهم الحجة، وضاقت عليهم الحيل، ولم يبق لهم علل، عمدوا إلى الأسلوب الغليظ العنيف فى مقاومة الحجة، لأن الباطل ضيق الصدر عربيد: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

التطير: التشاؤم والفأل غير الحسن، والمعنى: إنا تشاءمنا من وجودكم بيننا، ولم نر خيرا فى عيشنا على وجوهكم، فقد فرقتمونا، وأوقعتم الخلاف فيما بيننا، وإذا لم ترحلوا عنا، وتكفوا عن هذه الدعوة، وتعرضوا عن هذه المقالة لترجمنكم بالحجارة، وليصيبنكم وليلحقن بكم منا عذاب مؤلم فظيع موجع.

وذلك دأب الظالمين مع الدعاة إلى الله فى كل زمان ومكان، إذ تفوتهم الحجة، فيلجأون إلى التهديد والوعيد ثم التنفيذ.

وأصل التطير: تكلف معرفة دلالة الطير على خير أو شر،فإنهم كانوا يزعمون أن الطائر السانح سبب للخير، والبارح سبب للشر، ثم استعمل فى كل حدث يتوهم منه أحد أنه كان سببا فى لحاق شربه، وهو عادة قديمة ، وعقيدة فاسدة، ولذلك لم يرد فى القرآن الكريم مسندا إلا إلى الكفار، وقد جاءت السنة مؤكدة على نفيه، والتحذير منه، ففى الحديث "لا عدوى ولا طيرة، وإنما الطيرة على من تطير".

قال صاحب الكشاف: قوله "تطيرنا بكم" تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شئ مالوا إليه، واشتهوه، وآثروه، وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا: ببركة هذا وبشؤم هذا[1].

(١) الكشاف ٣/ ٣١٨ .

واللام الأولى فى قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ موطئة للقسم المحذوف ، والثانية واقعة فى جوابه، وحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه .

قال ابن مالك فى ألفيته:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ∴ جواب ما أخرت فهو ملتزم

وقوله: "وليمسنكم" بيان للرجم، أى لا نكتفى برجمكم بحجر أو حجرين، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت، وهو العذاب الأليم، أو ليمسنكم بسبب الرجم منا عذاب مؤلم فظيع موجع .

وفسر بعضهم الرجم بالشتم، فيكون المعنى: لا نكتفى بالشتم، بل يكون شتمنا مؤديا إلى الضرب والإيلام الحسى[1].

والتعبير بقوله "منا" فيه إيماء إلى تهكم القوم واستهزائهم بالمرسلين، أى لا من غيرنا، كما تقولون أنتم فى تهديدكم إيانا بما يحل بنا ممن أرسلكم .

ولكن الرسل قابلوا كل ذلك بالثبات والمنطق السديد، فقالوا لهم: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ .

أى سبب شؤمكم معكم ومنكم، وليس لنا دخل فيه، وهو سوء اعتقادكم، وقبح أعمالكم، أو شؤمكم مردود عليكم، قابلوا الكلام بمثله، مما يدل على جواز الانتصار لتبيان الحق .

وجواب الشرط لقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ محذوف، والتقدير: أئن وعظتم بما فيه سعادتكم، وذكرتم بالحق، وخوفتم من عقاب الله تطيرتم وتشاءمتم، أو توعدتم بالرجم والتعذيب .

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إبطال لأن يكون الشؤم بسبب تذكيرهم .

---

(١) انظر : تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٣/ ٣٠٥ .

أى ليس الأمر كما زعمتم من أن التذكير سبب للتطير بل الحق أنكم قوم كافرون، غشيت عقولكم الأوهام فظننتم أن ما فيه نفعكم ضرا لكم، وأغرقتم فى الجهالة والمعصية، ومجاوزة الحد، وفساد الاعتقاد ، فلذلك توعدتم وتشاءمتم، بمن يجب إكرامه والتبرك به .

وفى ذكر كلمة "قوم" إيذان بأن الإسراف متمكن منهم، وبه قوام قوميتهم .

ثم أيدهم الله بنصير ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

هذا القول الكريم معطوف على جملة: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فهو من باب عطف القصة على القصة لبيان البون الشاسع بين حال المعاندين من أهل القرية وحال الرجل المؤمن منهم الذى وعظهم بموعظة بالغة .

ومعنى ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ ﴾ أى من أبعد أطرافها، والتنكير فى "رجل" لتعظيم شأنه، حيث أسرع لنصرة الحق، والذب عن رسل الله ابتغاء وجه الله، ونيل ثوابه، وقيل إن التنكير لبيان أن الرسل لا يعرفونه، فلا يقال إنهم تواطئوا معه[1].

وفى مجئ الرجل من أقصا المدينة إشعار بأن الرسل أتوا بالبلاغ المبين، حتى بلغت دعوتهم إلى أقصا المدينة .

وقد أجمع المفسرون على أن هذا الرجل هو "حبيب النجار" المشهور عند العلماء بصاحب يس، وقد ذكروا له أوصافا كثيرة، أشهرها أنه كان نجارا، وقال قتادة: كان يعبد الله فى غار، فلما سمع بخبر الرسل جاء لتصديقهم، ونصح قومه بعدم إيذائهم، وكونه فى غار لا ينافى مجيئه من أقصا المدينة .

(١) انظر: تفسير الفخر الرازى ٢٦/ ٥٦ .

قال ابن أبى ليلى: سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: على بن أبى طالب، ومؤمن آل فرعون، وصاحب يس، ذكره الزمخشرى مرفوعا عن رسول الله ـ ﷺ ـ وقال ابن كثير: إنه حديث منكر[1].

والمراد بالمدينة نفس القرية المذكورة سابقا، وعبر عنها هنا بالمدينة للإشارة إلى كبرها واتساعها، المستلزم لبعد الأطراف، وجمع الأخلاط.

ووصف الرجل بالسعى، يفيد أنه جاء مسرعا، ليعلن أمام الجميع كلمة الحق، وهذا ثناء على هذا الرجل يفيد أنه ممن يقتدى به فى الإسراع إلى تغيير المنكر، لم يرتض أن يظل قابعا فى مسكنه ـ كما يفعل الكثيرون ـ بل هرول نحو قومه ، ليقوم بواجبه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[2].

ومن الملاحظ هنا أن الجار والمجرور ﴿مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ قدم على الفاعل "رجل"، وفى سورة القصص قدم الفاعل على الجار والمجرور، حيث ورد فيها ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص:٢٠] .

والحكمة فى ذلك ـ والله أعلم بأسرار كتابه ـ أن المقصود فى سورة يس، كما يشير إليه السياق، وينبئ عنه المساق، الإعلام بأن هذا الرجل الذى جاء لتصديق الرسل، ودعوة القوم إلى اتباعهم، كان من سكان أطراف المدينة، وليس من وسطها، ولا يأتى مهرولا إلى نصرة المرسلين، وحث القوم على اتباعهم، واقتفاء أثرهم إلا رجل تحقق عنده صدق المرسلين، فكان فى قوة أن يقال: هذه حالهم تبينت للبعيد الدار، فأحق أن تتبين لمن قرب منهم وخالطهم.

---

(١) راجع: الكشاف ٣/ ٣١٩، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤٧ .
(٢) انظر: التفسير الوسيط ١٢/ ٢٣ .

فقدم ما يكون التبكيت به أشهر، والتعجب منه أكبر، وأما آية القصص فجاء النظم على الترتيب الأصلى، إذ لا داعى إلى التقديم، إذ المراد منها أنه جاء رجل لا يعرفه موسى من مكان غير مجاور له، فأخبره بما فيه القوم من الائتمار على قتله، وهذا يتحقق بما ورد النظم عليه[1].

وبعد وصوله إليهم حثهم على اتباع الرسل ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وهذا استئناف بيانى، كأنه قيل، فماذا قال عند مجيئه؟ فقيل: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ والإتباع: الامتثال، استعير له الاتباع، تشبيها للآخذ برأى غيره بالمتبع له فى سيره.

وافتتح الرجل خطابه لهم بـ"يا قوم" لتأليف قلوبهم، واستمالتها نحو قبول نصحه وإرشاده، وللإشارة إلى أن ما سيخاطبهم به هو محض نصيحة، لأنه يحب لقومه ما يحب لنفسه، ولا يريد بهم إلا الخير.

ومن الملاحظ أنه حثهم على اتباع الرسل، ولم يقل اتبعونى كما قال مؤمن آل فرعون ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]، وذلك لأنه جاءهم فنصحهم، وما رأوا سيرته بعد، فقال: اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل، وأوضحوا لأجلكم السبيل.

والتعبير عن المبعوثين بالحق بهذا العنوان "المرسلين" فيه حث لهم على اتباعهم.

ثم أكد وجوب الإتباع بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ٣٩٠، ٣٩١ نقلا عن تفسير مبهمات القرآن ٢/ ٣٩٥.

وجاءت هذه الجملة مفصولة عما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال، حيث إن الجملة الثانية جاءت متضمنة لمعنى الأولى، وهو حمل الناس على اتباع الرسل، وزادت عليه ببيان العلة فى اتباع الرسل، والفائدة التى تحصل لهم من وراء هذا الاتباع، دون أن يكلفهم الاتباع شيئا ، إذ هم يدعون إلى هدى ، ولا نفع ينجر لهم من ذلك ، فتمحضت دعوتهم لقصد هداية المرسل إليهم، وهذه كلمة حكمة جامعة فى الاستجابة لدعوة الرسل.

قال الخطيب القزوينى: أى اتبعوا من لا تخسرون معهم شيئا من دنياكم، وتربحون صحة دينكم، فينتظم لكم خير الدنيا والآخرة[1].

وفى تكرير الفعل "اتبعوا" إشعار بشدة اهتمامه بنصحهم ودعوتهم إلى الطريق الحق، وفيه إظهار للشفقة عليهم. وقد روى أنه كان يقتل ويقول: اللهم اهد قومى.

والأجر: يصدق بكل نفع دنيوى يحصل لأحد من عمله، فيشمل المال والجاه والرياسة، فلما نفى عنهم أن يسألوا أجرا، فقد نفى عنهم أن يكونوا يرمون من دعوتهم إلى نفع دنيوى يحصل لهم.

وبذلك تهيأ الموقع لجملة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أى والحال أنهم فى أنفسهم مهتدون، أى سالكون طريق الهداية التى توصل إلى سعادة الدارين.

والتعبير عن اهتدائهم بالجملة الاسمية لإفادة أن الاهتداء ثابت لهم ودائم، إذ هو مركوز فى طباعهم، ومستقر فى نفوسهم، فما قصدوا شيئا إلا أصابوا وجه صوابه، وبذلك تضمنت هذه الجملة بموقعها بعد التى قبلها ثناء على المرسلين، وعلى ما يدعون إليه، وترغيبا فى متابعتهم.

---

(١) الإيضاح فى علوم البلاغة صـ٨٩ .

وآثر النظم القرآنى تقديم عدم سؤال الأجر على الاهتداء؛ لأن القوم كانوا فى شك من صدق المرسلين، وكان من دواعى تكذيبهم اتهامهم بأنه يجرون لأنفسهم نفعا من ذلك؛ لأن القوم لما غلب عليهم التعلق بحب المال، وصاروا بعداء عن إدراك المقاصد السامية، كانوا يعدون كل سعى يلوح على امرئ إنما يسعى به إلى نفعه، فقدم ما يزيل عنهم الاسترابة، وليتهيأوا إلى التأمل فيما يدعونهم إليه، ولأن هذا من قبيل التخلية بالنسبة للمرسلين والمرسل إليهم، والتخلية تقدم على التحلية(١).

ثم أخذ بعد ذلك فى حض قومه على اتباع الحق، وذلك ببيان الأسباب التى حملته على الإيمان، حتى يحرك فيهم جوانب الخير، فتندفع نفوسهم نحو التصديق بالرسل، والإذعان للحق، فقال ــ كما حكى عنه القرآن ــ ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

أسئلة إنكارية ينكر بها الرجل على نفسه ألا يكون فى العابدين لله الذى خلقه، ولم يك قبل ذلك شيئا مذكورا.

والذى إليه وحده مرجع الجميع بعد الموت،فيجازى كلا بعمله.

أفيترك عبادة من خلقه ورزقه، والذى يميته ثم يحييه، ويعبد آلهة من دون الله لا تملك من الأمر شيئا، إن يرده الله بضر فلا كاشف له إلا هو، ولا تملك الآلهة دفع هذا الضر عنى ولا منعه، إنى إذا فعلت ذلك واتخذت هذه الأصنام آلهة من دون الله لفى ضلال واضح، وجهل فاضح، وانحراف عن الحق لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٦٧.

وأى ضلال بعد هذا الضلال، الذى يدع فيه الإنسان حبل النجاة الممدود إليه، ثم يتعلق بأمواج البحر الصاخبة، وتياراته المتدافعة؟

و"ما" فى قوله: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ استفهامية، فى موضع رفع بالابتداء، والخبر هو المجرور من قوله "لى" ، وجملة "لا أعبد" حال من الضمير، والخبر مستعمل فى التعريض بهم.

كأنه يقول: ومالى لا أعبد وما لكم لا تعبدون، بقرينة قوله : ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ دون وإليه أرجع، وصرف الكلام عنهم أولا، وأسنده إلى نفسه، لإبرازه فى معرض المناصحة لنفسه، وهو مريد مناصحتهم، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم.

وسوق الكلام على هذا النحو فيه تلطف بهم ومداراة لهم، فلقد أسمعهم الحق على وجه لا يثير غضبهم، ويكون أعون على قبولهم إياه، حين يرون أنه لا يريد لهم إلا ما يريده لنفسه.

وهذه الطريقة أحسن فصاحة، وأكثر ملاءمة من تكلف الالتفات[1].

ثم أتبع هذا بإبطال عبادة الأصنام، فقال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ والاستفهام للإنكار والنفى والتوبيخ والتقريع، أى لا يصح ولا يجوز، ولا يستقيم، ولا يليق، ولا يقبل لدى أرباب الأحلام، وذوى الحجا، وفيه من تحميق من يعبد الأصنام ما فيه على طريقة التعريض.

وقوله: ﴿ إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ استئناف سيق لتعليل النفى المذكور، وجعله صفة للآلهة المزعومة المفروضة الاتخاذ، للتعريض بالمخاطبين فى اتخاذهم تلك

(١) انظر: الدر المصون

الآلهة بعلة أنها تشفع لهم عند الله، وتقربهم إليه زلفى، وقد علم من انتفاء دفعهم الضر أنهم عاجزون عن جلب نفع؛ لأن دواعى دفع الضر عن المولى أقوى وأهم، ولحاق العار بالولى فى عجزه عنه أشد[1].

والتعبير بـ"الرحمن" هنا للإشارة إلى أنه ـ سبحانه ـ المنعم بجلائل النعم على كل المخلوقات، فهو الذى أوجده من العدم بقدرته، وهداه إلى دين الفطرة، وكشف له الحقيقة التى غفل عنها القوم، وهو الذى يدفع عنه الضر برحمته، وإليه يرجع الأمر كله، وهذا باسم الرحمن أنسب، ولذا فهو بالمقام أليق.

والإنقاذ: التخليص من غلب أو كرب أو حيرة،أى: لا يخلصوننى من الضر والمكروه بالنصرة والمظاهرة، وهو ترق من الأدنى إلى الأعلى، قصد منه المبالغة فى إظهار عجزهم، وعدم مساواتهم لله الذى يضر وينفع فى صفات الألوهية.

وجئ بالنظم على هذا الترتيب من تقديم الشفاعة على الإنقاذ؛ لأن الذى يريد أن يدفع الضر عن شخص يقدم على الشفاعة أولا، فإن قبلت وإلا أنقذه وخلصه بوجه من الوجوه[2].

وجملة ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ جواب للاستفهام للإنكارى، والتنوين فى "إذا" عوض عن جملة، أى إن اتخذت آلهة من دون الله أكن فى ضلال مبين.

ثم ختم حديثه معهم بإعلان إيمانه بكل صراحة وقوة فقال: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾.

وفى هذا تسجيل عليهم بأن الله هو ربهم لا تلك الأصنام، وإضافة الرب إلى ضميرهم، حيث قال ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾، وما قال

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٦٩.
(٢) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥/ ٥٣٠.

"آمنت بربى" لتحقيق الحق، والتنبيه على أن ربهم الذى خلقهم وخلقه، هو الذى يعبده، فيعبدوا ربهم، ولو قال : "آمنت بربى" لعلهم يتلكأون ويقولون: أنت تعبد ربك، ونحن نعبد ربنا، وهو آلهتهم.

وإلقاء الرجل لهذا الإعلان الواضح الحاسم فى وجه المكذبين المهددين المتوعدين، يدل على تصلبه فى الدين، وثباته على ما استقر فى قلبه من الحق المبين، وعدم مبالاته بما يصدر منهم، ولذا طلب منهم السماع ليكونوا شهداء على ما نطق به، وليكن ما يكون.

وفى إلقائه الخبر مؤكدا إشارة إلى أن قومه لم يعلموا من كلامه أنه آمن، بل ترددوا فى ذلك لما سمعوا منه ما سمعوا.

ولما فرغ من نصيحته لهم، وثبوا عليه فوطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه، ثم ألقى فى البئر، وهو قول ابن مسعود ـ ﷺ ـ، وقال السدى: رجموه بالحجارة حتى مات، وقيل: نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه[1].

وقيل: إنه لما نصح قومه بهذه النصائح الغالية الحكيمة، ضاقوا به ذرعا، وأقبلوا عليه ليقتلوه فالتفت إلى الرسل وخاطبهم بهذا القول ليشهدوا له بذلك عند ربه.

وأكد الخبر إظهارا لصدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط، وأضاف الرب إلى ضميرهم إظهارا للاقتداء بهم، كأنه قال: آمنت بربكم الذى أرسلكم أو الذى تدعوننا إلى الإيمان به[2].

وقوله: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾ استئناف لبيان ما وقع له بعد ذلك، فسامع القصة تتشوف نفسه إلى معرفة ما لقيه من قومه بعد أن واجههم بذلك الخطاب الجزل، وهل اهتدوا بهديه أو أعرضوا عنه

(١) راجع: تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٣/ ٣٠٧ .
(٢) انظر: روح المعانى ٢٢/ ٣٤٠ .

وتركوه، أو آذوه كما يؤذى أمثاله من الداعين إلى الحق، المخالفين هوى الدهماء.

والتعبير بالماضى لتحقيق الوقوع، وحذف المقول له، لأنه معلوم، ولأن الغرض المهم بيان المقول، والقائل هو الله ـ سبحانه ـ أو الملائكة بأمره، وهذا القول الكريم ، فيه إشارة إلى أن الرجل قد قتل شهيدا فى إعلاء كلمة الله، لأن تعقيب موعظته بأمره بدخول الجنة دفعة بلا انتقال، يفيد بدلالة الاقتضاء أنه مات قتيلا، وإنما أدخل الجنة عقب موته، لأنه كان من الشهداء، والشهداء يسرحون فى الجنة حيث شاءوا من حين الموت، فقد ورد فى الحديث: "إن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تأكل من ثمار الجنة".

ولما كان الطبع البشرى داعيا إلى محبة الانتقام ممن وقع منه الأذى، بين ـ سبحانه ـ أن الأصفياء على غير ذلك الحال، فقال مستأنفا: ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾.

فالسامع يترقب ماذا قال عند نيله تلك الكرامة السنية؟

وإنما تمنى علم قومه بحاله، ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر، والدخول فى الإيمان.

قال ابن كثير: ومقصوده ـ من هذا القول ـ أنهم لو اطلعوا على ما حصل لى من الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضى عنه، فلقد كان حريصا على هداية قومه[1].

وقال الزمخشرى: إنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم بالتوبة عن الكفر، والدخول فى الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة، وفى حديث مرفوع: "نصح قومه حيا وميتا".

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤٦ .

وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار، وأهل البغى، والتشمر فى تخليصه، والتلطف فى افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به، والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، وللباغين له الغوائل، وهم كفرة وعبدة أصنام"(١).

و"ما" فى قوله ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ مصدرية، أى يعلمون بغفران ربى لى، ويجوز أن تكون موصولة بمعنى الذى ، والجملة بعدها صلة، والعائد محذوف، تقديره: يا ليت قومى يعلمون بالذى غفره لى ربى، والمراد تعظيم مغفرته تعالى له .

والمراد بالمكرمين: الذين تلحقهم كرامة الله تعالى، وهم الملائكة، والأنبياء وأفضل الصالحين، وذلك لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وبعد أن بين حال الناصح الشهيد، وما أكرمه الله به من الجزاء العظيم، وهو دخوله الجنة والتنعم بما أعده الله له فيها من المغفرة والكرامة، أردف ذلك ببيان حال قومه الذين نصحهم فلم ينتصحوا ، وما كان من كيفية إهلاكهم، حيث دمرهم الله بصيحة واحدة، فصاروا صرعى هامدين، ولم يحتج إهلاكهم لإرسال جنود من السماء، لأن أمرهم أهون على الله من أن يفعل معهم ذلك ، قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾.

الجند: العسكر، والمراد بهم الجند من الملائكة .

(١) الكشاف ٣/ ٣١٩ .

و"من" فى قوله "من بعده" ابتدائية، جئ بها لتأكيد اتصال المظروف بالظرف، وإضافة "بعد" إلى ضمير الرجل على تقدير مضاف شائع الحذف، أى بعد موته، كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾.

و"من" فى قوله "من جند" دخلت على المفعول به النكرة فى سياق النفى لتأكيد عمومه، وفى الإتيان بحرف "من" ثلاث مرات مع اختلاف المعنى محسن الجناس.

وفى نفى إنزال الجنود من السماء لإهلاك قوم حبيب تصغير لأمرهم، واستحقار لهم ولإهلاكهم، حيث اكتفى فى استئصالهم بصيحة عبد واحد مأمور، قال ابن كثير: قال المفسرون: بعث الله تعالى إليهم جبريل ــ عليه الصلاة والسلام ــ فأخذ بعضادتى باب بلدهم، ثم صاح فيهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم تبق بهم روح تتردد فى جسد[1].

وفيه إيماء إلى تفخيم وتعظيم شأن الرسول ــ ﷺ ــ لأنه إذا كان أدنى صيحة ملك واحد كافيا فى إهلاك جماعة كثيرة، ظهر أن إنزال الجنود من السماء يوم بدر والخندق لم يكن إلا تعظيما لشأنه، وإجلالا لقدره.

قال الزمخشرى: فإن قلت: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وقال: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ــ بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ــ بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾؟ قلت: إنما كان يكفى ملك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤٧ .

منه، ولكن الله فضل محمدا ــ ﷺ ــ بكل شئ على كبار الأنبياء وأولى العزم من الرسل، فضلا عن حبيب النجار، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحدا، فمن ذلك أنه أنزل له جنودا من السماء، وكأنه أشار بقوله : "وما أنزلنا" ــ "وما كنا منزلين" إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التى لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعله بغيرك"(١).

و"إن" فى قوله ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً ﴾ نافية بمعنى "ما" والاستثناء مفرغ، وصيحة خبر كان، والتقدير: ما كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة، و"صيحة" بوزن فعلة: المرة من الصياح، ووصفها بواحدة تأكيد لأمرها ، وتحقيق لوحدتها، وفيه من تحقير أمرهم ما لا يخفى.

ومجئ "إذا" الفجائية فى قوله: ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ لبيان الإسراع فى الإهلاك، وفى هذا زيادة تحقير لهم.

والخمود: انطفاء النار، يقال: خمدت النار تخمد خمودا إذا سكن لهيبها، وانطفأ شررها، وخمد الرجل من باب "قعد" إذا مات، وانقطعت أنفاسه، والخمود هنا استعير للموت بعد الحياة المليئة بالقوة والطغيان، شبهوا بالنار الخامدة، رمزا إلى أن الحى كالنار الساطعة فى الحركة والالتهاب، والميت كالرماد، والاستعارة تصورهم بأنهم كانوا قبل موتهم كالنار الموقدة فى القوة الغضبية، حيث قتلوا من نصحهم، وتجبروا على من أظهر المعجزة لديهم.

ومن المستجاد فى تصوير هذا المعنى قول لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ∴ يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٠ .

وقول المعرى:

وكالنار الحياة فمن رماد ∴ أواخرها وأولها دخان

والتعبير باسم الفاعل فى قوله: "خامدون" يفيد أن الخمود ثابت لهم، كأنهم ما كانت لهم حركة يوما من الدهر.

ولما أخبر عنهم ـ سبحانه ـ بما هو الحق من أمرهم، ورغبهم بما ضرب لهم من المثل ورهبهم، ولم ينفعهم ذلك، أنتج التأسيف عليه، وعلى الممثل بهم ومن شابههم فقال: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾.

الحسرة: الغم والحزن على ما فات، وشدة الندم عليه، كأن المتحسر انحسرت عنه قواه من فرط غم، أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه[1].

و"يا" حرف نداء، و"حسرة" منادى، وهى لا تدعى ولا يطلب إقبالها، لأنها مما لا تجيب، والفائدة فى ندائها مجرد تنبيه المخاطب وإيقاظه، ليتمكن فى ذهنه إن هذه الحالة تقتضى الحسرة، وتوجب التلهف، فإن العرب تقول: يا حسرة ، يا عجبا للمبالغة فى الدلالة على أن هذا زمان الحسرة والتعجب، والنداء عندهم فى مثل هذا إنما يكون لمجرد التنبيه، ومن ذلك قول شاعرهم:

يا لعنة الله والأقوام كلهم ∴ والصالحين على سمعان من جار

وأصل هذا النداء أنه على تنزيل المعنى المثير للإنشاء منزلة العاقل، فيقصد اسمه بالنداء لطلب حضوره، فكأن المتكلم يقول: هذا مقامك فاحضر، كما ينادى من يقصد فى أمر عظيم، وينتقل من ذلك إلى الكناية عما لحق المتكلم من حاجة إلى ذلك المنادى، ثم كثر ذلك،

(١) المفردات لراغب صـ١١٧ .

وشاع حتى تنوسى ما فيه من الاستعارة والكناية، وصار لمجرد التنبيه على ما يجئ بعده، والاهتمام حاصل فى الحالين.

وموقع مثله فى كلام الله تعالى تمثيل لحال عباد الله فى تكذيبهم رسل الله بحال من يرثى له أهله وقوعه فى هلاك أرادوا منه تجنبه[1].

والمقصود من الآية الكريمة التعجب من حال هؤلاء المهلكين، وبيان أن حالهم تستحق التأثر والتأسف والاعتبار، لأنها حالة تدل على بؤسهم وظلمهم لأنفسهم وجهلهم.

وفى وصف الناس بأنهم عباد، إشارة إلى أنهم ــ وهم عباد ــ لم يرعوا حق العبودية لله، بل كفروا بالله، وكذبوا رسله، واستهزءوا بهم.

والمراد بالعباد، هم الناس جميعا على اختلاف أوطانهم وأزمانهم، فجميع الناس عبيد الله تعالى، لأنه خالقهم والمتصرف فيهم، وعلى هذا فالتعريف فى العباد تعريف الجنس المستعمل فى الاستغراق، وهو استغراق ادعائى روعى فيه حال الأغلب على الأمم التى يأتيها رسول، إنهم هكذا دأبهم، وقليل منهم من يؤمن بالله، ويصدق رسله، أما الكثرة، فهم على هذا الوصف ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

والتعبير بـ"على" يفيد أن أسباب الحسرة ملازمة لهم، لا تفارقهم، فلا نديم لهم إلا هى، ولا حاضر معهم غيرها، ولا مستعلى عليهم وغالب لهم سواها[2].

---

(١) راجع: تنوير الأذهان ٣/ ٣٠٨، التحرير والتنوير ٢٣/ ٨.
(٢) انظر: نظم الدرر ١٦/ ١١٧.

ثم بين الحق ــ سبحانه ــ سبب الحسرة والندامة الواقعة عليهم، والملازمة لهم بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

والاستثناء فى قوله: ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مفرغ من أحوال عامة من الضمير فى "يأتيهم" أى لا يأتيهم رسول فى حال من أحوالهم إلا استهزأوا به.

وتقديم المجرور على "يستهزئون" للاهتمام بالرسول المشعر باستفظاع الاستهزاء به، فهم يستهزئون بمن هم أبعد الخلق من الهزؤ حالا ومقالا وفعالا، وبهذا التقديم تتأتى الفاصلة، فحصل منه غرضان من المعانى والبديع[1].

والمعنى: ما يحضر إليهم رسول من قبل الله تعالى إلا قابلوه بالسخرية والاستهزاء والتكذيب ، وتلك مصيبة الأمم جميعا، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

ثم عجب ــ سبحانه ــ من حال هؤلاء المشركين الذين لم يتعظوا بهلاك من سبقهم من الأمم السالفة، والقرون الماضية، فقال : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

ضمير "يروا" عائد إلى العباد الوارد ذكرهم فى قوله ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾، و"كم" خبرية بمعنى كثير، والقرون : جمع قرن، والقرن: القوم المقترنون فى زمن واحد.

والآية إنذار لمشركى مكة ووعيد لهم بمثل عذاب الأمم الماضية، ليتعظوا، ويعتبروا، ويرجعوا عما هم فيه من الشرك.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٣/ ٩ .

قال ابن كثير: أى ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة[1].

وفى هذا رد واضح على القائلين بالتناسخ أو بالدور.

والاستفهام يجوز أن يكون إنكاريا، نزلت غفلتهم عن إهلاك القرون منزلة عدم العلم، فأنكر عليهم عدم العلم بذلك، وهو أمر معلوم مشهور، ويجوز أن يكون تقريريا ، بنى التقرير على نفى العلم بإهلاك القرون استقصاء لمعذرتهم حتى لا يسهم إلا الإقرار بأنهم عالمون، فيكون إقرارهم أشد لزوما لهم ، لأنهم استفهموا على النفى، فكان يسعهم أن ينفوا ذلك.

والرؤية على التقديرين علمية، وليست بصرية، لأن إهلاك القرون لم يكن مشهودا لأمة جاءت بعد الأمة التى أهلكت قبلها.

وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل اشتمال من جملة "أهلكنا" لأن الإهلاك يشتمل على عدم الرجوع.

وفائدة هذا البدل تقرير تصوير الإهلاك لزيادة التخويف، ولاستحضار تلك الصورة فى الإهلاك، أى إهلاكا لا طماعية معه لرجوع إلى الدنيا، فإن ما يشتمل عليه الإهلاك من عدم الرجوع إلى الأهل والأحباب مما يزيد الحسرة اتضاحا[2].

وقوله : ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ معطوف على جملة : ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وهو واقع موقع الاحتراس، لبيان أن جميع الأمم الماضية والآتية، من المهلكين وغيرهم سيجتمعون يوم القيامة جميعا عند الله تعالى، وسيحاسبون على جميع أعمالهم، خيرها وشرها.

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤٨ .
(٢) راجع: التحرير والتنوير ٢٣/ ١٠ .

وفيه إبطال لتوهم المخاطبين أن قوله ــ سبحانه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ مؤيد اعتقادهم انتفاء البعث.

و"إن" نافية، و"لما" بمعنى "إلا"، وكل مبتدأ، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه، أى وكل القرون، أو كل المذكورين من القرون والمخاطبين، و"جميع" خبر، و"محضرون" نعت له، وهذا على قراءة "لما" بالتشديد، وعلى قراءة "لما" بالتخفيف تكون "إن" مخففة من الثقيلة مهملة لا عمل لها، واللام للفرق بين "إن" المخففة، وبين "إن" النافية و"ما" لزياد التأكيد[1].

وجمع بين كلمتى "كل" و"جميع" مع أن بينهما تقارب فى المعنى، لأن المقام هنا يتطلبهما معا، فليس ذكر إحداهما يغنى عن ذكر الأخرى، فكلمة "كل" أفادت أن كل القرون محضرون، بحيث لا يتفلت منهم أحد فإن الإحضار محيط بهم.

وكلمة "جميع" أفادت أنهم محضرون مجتمعين، فليس إحضارهم فى أوقات مختلفة، ولا فى أمكنة متعددة[2].

وفى التعبير بقوله: "محضرون" إشارة إلى أن هناك قوة تستدعيهم للحضور بين يدى الله، وأن ذلك ليس عن اختيار منهم، ولو كان ذلك كذلك لكان للكافرين وأهل الضلال مهرب إلى عالم الفناء الأبدى، حيث يذهبون، ولا يعودون، كى يفلتوا من العذاب الأليم.

---

١) راجع: تفسير القرطبى ١٥ / ٢٨، ومعانى القرآن للنحاس ٥/ ٤٩١.

٢) مستفاد من: التحرير والتنوير ٢٣/ ١١.

وهذا يدل على كمال قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ التى لا حدود لها، فهى قدرة مطلقة، ولا يملك العبد الذى يعجز عن تفسير الكثير مما أودعه الله فى هذا الكون المحيط به من غرائب وعجائب إلا أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ .

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم ٠

١ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى . دار الندوة الجديدة . بيروت . لبنان ٠

٢ - الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق د/ عائشة عبدالرحمن ـ دار المعارف ٠

٣ - الإيضاح فى علوم البلاغة الخطيب القزوينى ـ محمد على صبيح وأولاده القاهرة ١٩٧١م ٠

٤ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم . دار التراث القاهرة ٠

٥ - التبيان فى إعراب القرآن للعكبرى المكتبة التوفيقية. القاهرة ١٩٨٠م ٠

٦ - تفسير أبى السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. دار الفكر ٠

٧ - تفسير البحر المحيط لأبى حيان . دار الفكر ـ بيروت ط ثانية ١٩٧٨م ٠

٨ - تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر ابن عاشور. دار سحنون. تونس ٠

٩ - تفسير روح المعانى للألوسى. دار إحياء التراث العربى . ط رابعة، بيروت، لبنان ٠

١٠ - تفسير الطبرى المسمى بجامع البيان. لابن جرير ت/ محمد محمود شاكر . دار المعارف ٠

١١ – تفسير الفخر الرازى المسمى بالتفسير الكبير . دار الفكر ١٩٩٥م.

١٢ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير. دار التراث . القاهرة.

١٣ – التفسير القرآنى للقرآن، لعبدالكريم الخطيب، دار المعرفة.

١٤ – تفسير مبهمات القرآن لأبى عبدالله محمد البلنسى ت/عبدالله عبدالكريم محمد. ط أولى ١٩٩١م، دار الغرب الإسلامى. بيروت. لبنان.

١٥ – التفسير الموضوعى للقرآن د/ أحمد السيد الكومى، د/محمد القاسم.

١٦ – التفسير الوسيط.

١٧ – تنوير الأذهان من تفسير روح البيان. دار إحياء التراث. بيروت. لبنان.

١٨ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبى. دار الحديث القاهرة ط١ – ١٩٩٤م.

١٩ – حاشية الصاوى على الجلالين. مطبعة الحلبى وأولاده مصر.

٢٠ – دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر ت/ محمود محمد شاكر . مطبعة المدنى . القاهرة.

٢١ – سنن الترمذى. كتاب فضائل القرآن – دار الحديث – القاهرة.

٢٢ – صحيح مسلم – دار الآفاق الجديدة – بيروت – لبنان.

٢٣ – صفوة البيان لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوق.

٢٤ – غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ت/ إبراهيم عطوة. الحلبى وأولاده – القاهرة.

٢٥ - فتح الرحمن فى تفسير سورة آل عمران د/ أمين محمد عطية باشا ـ مطبعة الحسين الإسلامية ط١ ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٢٦ - الفتوحات الإلهية . لسليمان بن عمر الشهير بالجمل. عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر.

٢٧ - فى ظلال القرآن. سيد قطب . دار الشروق ط٢٥ ـ ١٩٩٦م.

٢٨ - الكشاف للزمخشرى . دار الفكر بالقاهرة ط: ١ ـ ١٩٧٧م.

٢٩ - المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية: دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٣٠ - مسند الإمام أحمد بن حنبل . دار الفكر العربى . القاهرة.

٣١ - معانى القرآن للنحاس . عالم الكتب ، بيروت.

٣٢ - مفتاح العلوم للسكاكى ت: نعيم زرزور دار الكتب العلمية. بيروت ط٢ ١٩٨٧م.

٣٣ - معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهانى. دار الفكر بيروت.

٣٤ - نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام البقاعى. دار الكتب العلمية ، بيروت.

٣٥ - نظرات فى التمثيل البلاغى د/ محمود السيد شيخون. الكليات الأزهرية . القاهرة.